أغاني الحياة

ديوان شعر أبي القاسم الشابي

مع ثلاثة رسوم بريشة الفنان حاتم المكي

الطبعة الأولى

ملتزم الطبع والنشر

دار الكتب الشرقية

جميع الحقوق محفوظة

١٩٥٥

أغاني الحياة

هو ديوان أبي القاسم الشابي نخرجه كما أعدَّهُ ، وعلى الترتيب الذى اختاره له ، فلم نتصرف فيه إلا بإضافة القصائد التالية التى لم يثبتها الشاعر وهى :

« نظرة فى الحياة » ، « أنشودة الرعد » ، « فى الظلام » ، « أيها الليل » ، « شعرى » ، « أيها الحب » ، « أغنيّة الأحزان » ، « جدول الحب » .

وكان الشاعر يتعهد شعره بالمراجعة من حين لآخر ، فيصلح منه ؛ وسيدرك مدى هـذا التنقيح كل من يتسنى له أن يقابل بين ما قد نشر من شعره ، و بين هذا الديوان .

م . أ . ش

أبو القاسم الشابي

إرادة الحياة

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بدّ للقيد أن ينكسر
ومن لم يهاب سُعُوب الحياة ومن لم يحبّ صعود الجبال
ويبل لمن لم تشقّ الحياة من صفعة العدم المنتصر
كذلك قالت لي الكائنات وحدّثني روحها المستتر

•

ودمدمت الريح بين الفجاج، وفوق الجبال، وتحت الشجر:
«إذا ما طمحت إلى غاية ركبت المنى، ونسيت الحذر»
«ولم أتجنّب وعور الشعاب ولا كبّة اللهب المستعر»
«ومن لا يحبّ صعود الجبال
يعش أبد الدهر بين الحفر»
فعجّت بقلبي دماء الشباب وضجّت بصدري رياح أخر...
وألهبت، أصغي لقصف الرعود،
وعزف الرياح، ووقع المطر

•

صفحة بخط المؤلف من أغاني الحياة.

أبو القاسم الشابى

١٩٠٩ — ١٩٣٤

من أبناء القرن العشرين الذين نشأوا فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ، أيام كان العالم العربى يتعثر بين حاضره الأليم وماضيه القريب المنقوض ، ودعاة الإصلاح وأنصار الجديد فى تلك الفترة الانتقالية ، إنما يلقون جحودا وأذًى لا تزيدهما سيطرة الغرب على الشرق ، وشموخه بحضارته ، ووثوقه بمصيره ، إلا احتداما وسطوة لدى فريق واسع من الخاصة والعامة على السواء .

بيد أن الشاعر لم يتردد كثيرا حتى عرف سربه فانضم إليه ، ثم صدح محلقا إلى أن اختطفته يد المنون وهو فى ريعان الشباب .

* * *

كان والده[١] من خريجى الأزهر ومن مُجازيه ، وبه درس أولاً ، فأقام بمصر فى أوائل هذا القرن سبع سنين ، ثم درس بتونس بجامع الزيتونة سنتين ، حصل بعدهما على « التطويع[٢] » ، ثم سمى قاضيا شرعيا لسنةٍ من ولادة بكره أبى القاسم فتصرف فى قضاء كثير من البلدان التونسية .

كان يقضى يومه بين المحكمة والمسجد والمنزل حيث يتبسط مع أهله ، ولقد نشأ أبو القاسم فى سنى تكوينه الفكرى والخلقى فى كنف رعايته الصالحة يقتبس من علمه وآدابه .

---

(١) هو المرحوم الشيخ محمد بن بلقاسم الشابى سليل أسرة « الشابية » التى تمحضت للعلم بعد أن أنجبته فى القرنين العاشر والحادى عشر هـ . من حملة القلم والسيف من اكتسبت بمساعيهم مجدا سجله التاريخ التونسي .

(٢) هى إجازة نهاية الدراسة بالكلية الزيتونية فى ذلك العصر .

كان رحمه الله صادق التقى ، قوىّ العقيدة لا يخشى فى الحق لومة لائم ، له غيرة على شئون المسلمين والإسلام ، تنفعل بما يجرى آنذاك من أحداث بالشرق العربى وطرابلس الغرب أو بلاد الريف .

قال الشاعر متحدثا عن أبيه : « إنه أفهمنى معانى الرحمة والحنان ، وعلمنى أن الحق خير ما فى هذا العالم وأقدس ما فى هذا الوجود[1] » .

* * *

لم ينشأ أبو القاسم بمسقط رأسه ، فقد خرج عنه فى سنته الأولى ولم يكد يعرفه إلا قليلا ، أثناء قَدْمَتَيْن أقام فيهما نحوا من ثلاثة أشهر ، الأولى عند ختانه فى الخامسة من عمره : والثانية زائرا ، ولقد استغرقت جولة الأسرة عشرين سنة ضربت فى بحرها بالبلاد التونسية طولا وعرضا ، متنقلة من قابس إلى سليانة فتالة ، ومن مجاز الباب إلى رأس الجبل فزغوان . و بين هذه المدن من الأميال ما يقدر بالمئات أحيانا ، وعلى نسبة ذلك اختلافُ العادات واللهجات والمشاهد الطبيعية . فلم تكن واحة قابس كبسائط مجاز الباب يغمرها الحصيد ، ولا هذه كبساتين رأس الجبل أو كجبل زغوان يكسوه شجر الصنوبر ، ولم يكن حرُّ قابس كثلوج تالة ، ولا حياة الفلاحين بمجاز الباب كحياة صيادى البحر بقابس أو رأسِ الجبل ، ولا طباعُ أهل الشمال كطباع أهل الجنوب .

هذه مراحل طفولة أبى القاسم وشبابه عملت على تضخم تجربته وتدفق شاعريته وازدهار ريشته ، بيد أن الشاعر أفاد ما يفيده كل عابر سبيل متيقظٍ واعٍ ، إذا ما استقر بأرض كان ربيبَها لا ابنَها الأصيل ، فأطلقه هذا المصير من حدود البيئة الضيقة وأكسبه « تونسية » إنسانية الآفاق .

* * *

---

(١) كتاب « الخيال الشعرى عند العرب » صفحة الإهداء — وقد أهداه لوالده .

قدم أبو القاسم إلى العاصمة سنة ١٣٣٩ هـ — ١٩٢٠م للدراسة بجامع الزيتونة فى الثانية عشرة من عمره ، ولقد تكوّن سريعا ، وقال الشعر باكرا[١] . كوّن لنفسه ثقافة واسعة عربية بحتة جمعت بين التراث العربى القديم فى أزهى عصوره و بين روائع الأدب الحديث بمصر والعراق وسوريا والمهجر ، ولم يكن يعرف لغة أجنبية ، فتمكن بفضل مطالعاته الواسعة من استيعاب ما تنشره المطابع العربية عن آداب الغرب وحضارته . وكانت أولى نشراته فى الصفحة الأدبية التى كانت ترتبها « النهضة » كل اثنين — سنة ١٣٤٥هـ — ١٩٢٦ م . وفى سنة ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م . ظهر شعره مجموعا فى المجلد الأول من كتاب « الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر »[٢] وفى نفس السنة ألقى بنادى قدماء الصادقية محاضرة حول « الخيال الشعرى عند العرب » كانت مادة الكتاب الذى نشر بنفس العنوان فى السنة التالية .

و إنك لتجده وهو يواصل دراسته ويضع شعره فى صميم حركات الإصلاح التى كانت تعتلج بها النفوس آنذاك من بعثٍ لحركة الشبان المسلمين ودعوة لتجديد الجهاز

---

(١) قصيدة (يا حب) التى أثبتناها بالديوان ، نظمها سنة ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٣ م .
وقد وصف صديقه الأستاذ زين العابدين السنوسى طريقته فى وضع قصائده ، فقال :

(إذا رجعنا إلى أدبائنا المعاصرين عرفنا أن المرحوم أبا القاسم الشابى لم يكن يستنزل الشعر ولكنه كان يفيض عليه مهاجمة تمنعه الراحة والنوم . فيصوغ القصيدة بيتاً بيتاً ويتهجى كل واحدة بمفردها فى ليله وظلامه الدامس . ولا تفارقه تلك الحال حتى يستفرغ ماجاش بضميره شعرا محكما ، ثم ينام مطمئنا كأنما نزع عن ظهره عبئا ، حتى إذا استيقظ فى الغد متأخرا وجدها على طرف لسانه ونسخها عن ذاكرته مطمئنا ، وربما طاش عنه الشطر فلا يرضى أن يعوضه أبدا ، وتبقى القصيدة بتراء فى جيبه يقرؤها علينا بتراء لايجسر على ترقيعها أبدا ، إلا أن يتذكرها ولو بعد أشهر فيتمها وينسخها فى كناشة) .

(٢) تأليف الأستاذ زين العابدين السنوسى (انظر الجزء الأول من صفحة ٢٠٣ حتى صفحة ٢٥٤) .

الثقافى التقليدى ، ومناصرةٍ لحركة تحرير المرأة[1] ودعوةٍ للتجديد فى الأدب تحتل المكان الأول من نفسه . وقد أحدث كتابه « الخيال الشعرى » الضجة الكبرى واستهدف الشاعر بسببه لحملة صحفية عنيفة ثبت لها ثبات الرائد المؤمن بما يقول .

نشرت هذه الآثار فى حياة والده ، فلم ينكر عليه مذهبه ، ووجد الشاعر فى تسامح أبيه ما يعزز جانبه و يثبت خطاه .

وفى هذه الأثناء (سنة ١٩٢٩) نكب بوفاة والده المحبوب ، ولقد رافقه عليلا من بلد « زغوان » إلى « توزر » مسقط رأسه ، وتجرع غصص مرضه ، وطفحت الكأس بموته وهو فى الخمسين من عمره ، فاضطلع بأعباء عائلة كبيرة واختار طريقا وعراً ، فانه — ضَنًّا بحرية الأديب والشاعر — لم يلج باب الارتزاق من المناصب الحكومية ورضى بحياة بسيطة على رأس أسرته بتوزر حيث تزوج ، ولعل هذا الذى عناه بعضهم حين قال : « كنا نرى فى نفسه الزكية مثال القناعة فى أفضل ألوانها والطموح على خير وجوهه[2] » .

وفى السنة نفسها أصيب بداء تضخم القلب ، وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، بيد أنه رغم نهى الطبيب لم يقلع عن عمله الفكرى وواصل إنتاجه نثرا وشعرا . وقد نشرت له سنة ١٩٣٣ بمجلة « أبولو » المصرية قصائد عملت على التعريف به فى الأوساط الأدبية بالشرق العربى ، و إلى أبى القاسم أوكل صديقه الدكتور أحمد زكى أبو شادى تصدير ديوانه « الينبوع » .

لم يكن الشاعر المريض يغادر « توزر » إلا فى الصيف و يقصد المصطافات الجبلية كعين دراهم بالشمال التونسى سنة ١٩٣٢ ، والمشروحة ببلاد الجزائر سنة ١٩٣٣ ،

---

(١) ناصر الشاعر صديقه المغفور له الطاهر الحداد واضع كتاب « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » الذى أثار ردودا حارة وسخطا عنيفا .

(٢) مجلة « العالم الأدبى » (شعبان سنة ١٣٥٣ — نوفمبر سنة ١٩٣٤) .

وشرع أثناء مصيف سنة ١٩٣٤ فى جمع ديوانه « أغانى الحياة » بنية طبعه بمصر[١] فانتسخه بنفسه بحامة البريد ، مستعينا ببعض أدبائها ، لكن باغتته المنية وحالت دون ما نوى . فقد انتابه المرض بغاية الشدة وقصد « تونس » يوم ٢٦ من أغسطس سنة ١٩٣٤ وبها توفى[٢] سحرًا يوم ٩ من أكتوبر سنة ١٩٣٤ ، ثم نقل جثمانه إلى بلده « توزر » حيث قبره .

* * *

نحيف الجسم ، مديد القامة ، قوىّ البديهة ، سريع الانفعال ، حادّ الذهن ، تكتنف رقة طبعه من غرب عاطفته وحدة ذهنه . يراه أصدقاؤه « بشوشا ، كريماً ، وديعاً ، متأنقاً ، طروباً لمجالس الأدب يحب الفكاهة الأدبية »[٣] ويراه من لم يخالطه حييا محتشما ويعرف منه هؤلاء وأولئك صراحة حازمة قوية يبديها لخاصة خلطائه فى غير ما تحرج متى اجتمع بهم ، ويجاهر بها العموم فى شعره ونثره . وكان محباً لبلاده ، صادق الوطنية[٤] يؤمن بأن لقادة الفكر رسالة إنسانية سليمة حاول جهده أن يحققها فى أثناء حياته القصيرة قولا وعملا .

تونس فى ١٢ من افريل سنة ١٩٥٤ م أ سه

---

(١) حيث تطوع الدكتور أبو شادى للإشراف على طبعه .

(٢) بالمستشفى الإيطالى « القديم » بحى « مونفلورى » .

(٣) العالم الأدبى ديسمبر ١٩٣٤ بقلم المغفور له البشير الفورتى عميد الصحفيين التونسيين .

(٤) أبنه فى ذكراه الأربعينية المرحوم الطاهر صفر أحد قادة الحركة الوطنية الممتازين إذ ذاك وأحد أعضاء الديوان السياسى للحزب الحر الدستورى التونسى بما خلاصته : (تكلم الأستاذ صفر نيابة عن قدماء الصادقية على شاعرنا الفقيد فأكبر روحه الأدبية ونبوغه الشعرى وأشار إلى الناحية الوطنية والإحساس الفياض الذى كان الشاعر يفيض به عن آمال بلاده وآلامها ، وقد ذكر الخطيب أنه اجتمع مع فقيدنا الشابى فى بلدة طبرقة حينما كان الشاعر فى حال شديدة من الألم ، وقد دار إذ ذاك الحديث بين الشاعر والزعيم فى الوطنية عما يؤمله للشعب التونسى من التقدم ورثى الشاعر لحال الشعب الآن ، وقد عبر عن ذلك فى قطعة شعرية وطنية نشرتها جريدة « العمل » بعدد (٢٢) « العالم الأدبى » فى ديسمبر سنة ١٩٣٤ .

مِنْ وَرَاءِ الظَّلَامْ

ضَيَّع الدَّهر مجدَ شعبى ، ولـكن ستردُّ الحيـــاةُ يوما وِشاحهْ
إنّ ذا عصرُ ظلمةٍ ، غير أنّى من وراء الظلام شِمْتُ صَبَاحَهْ

هذان البيتان استبقاهما الشاعر لهذا الديوان من قصيدة نظمها فى ذى القعدة ١٣٤٣ وإلى القارئ نصها بعنوانها كما وجدناه فى مسودات الشاعر :

تونس الجميلة

لستُ أبـكى لعسف ليلٍ طويل ، أو لربعٍ غـدا العفاءُ مراحهْ
إنما عَبرتى لخطبٍ ثقيلٍ ، قد عرانا ، ولم نجد من أزاحهْ
كلّما قام فى البـلاد خطيبٌ ، موقظٌ شعبَه يريد صلاحَهْ
أخمدوا صوتَه الإلٰهىّ بالعســـفِ ، أَمَاتُوا صُدَاحه ونُواحهْ
أَلبسوا روحَه قميصَ اضطهادٍ فاتكٍ شـائكٍ يردُّ جِماحَهْ
وتوخَّوْا طرائق العَسف والإر هاق تَوًّا ، وما توخَّوْا سَماحَهْ
هكذا المخلصون فى كل صوبٍ رشقاتُ الرَّدى إليهم مُتاحهْ
غـــير أنّا تناوبتنا الرَّزايا واستباحتْ حمانا أىّ استباحهْ

* * *

أنا يا تونس الجميلةُ فى لجِّ الهوى قد سبحت أىَّ سِباحهْ

شِرْعَتِي حُبُّكِ العَميقُ وإنّي قد تذوَّقْتُ مُرَّه وقَراحَـــهْ
لستُ أنصاع لِلَّواحي ولو مـــتُّ وقامتْ على شبابي المناحهْ
لا أبالي . . . وإنْ أُرِيقَتْ دِمائي فَدِمَاه العشاق دَوْمًا مُباحهْ
وبطول المَدى تُريكِ الليالي صادقَ الحُبِّ والوَلاَ وسَجاحهْ
إنَّ ذا عصرُ ظلمةٍ غـير أنّي من وراء الظلام شمتُ صَباحهْ
ضَيَّع الدهرُ مَجْدَ شعبي ولكنْ ستردُّ الحياةُ يوماً وِشاحه

مِنْ حَدِيثِ الشيوخ

ألاَ إنَّ أحلامَ الشَّباب - ضئيلةٌ تحطِّمها مثل الغصون المصائب
سألتُ الدَّياجي عن أماني شبيبتي فقالت : «ترامَتْها الرِّياحُ الجوائبُ»
ولما سألتُ الريح عنها أجابني : « تلقَّفها سيل القَضا ، والنوائبُ »
«فصارت عفاءً ، واضمحلَّتْ كذرَّةٍ على الشاطئ المحموم ، والموجُ صاخبُ»

خلِّه للموت

كلُّ قلبٍ حمل الخسف ، وما ملَّ من ذلِّ الحياة الأرْذلِ
كلُّ شعبٍ قد طغت فيه الدما دونَ أنْ يثأرَ للحق الجلى
خلِّه للموت يطويهِ !. . فما حظه غـير الفناء الأنكل

الحياة

إن هذى الحياةَ قيثارةُ الله ، وأهلُ الحياة مثل اللُّحونِ
نَغَمٌ يَسْتَبِي المشاعر كالسحر ، وصـــوتٌ يُخِلُّ بالتَّلحينِ
واللَّيالى مغاورٌ ، تُلْحِدُ اللَّحْـــن وتقضِى على الصَّدى المسكينِ

نظرة فى الحياة

إن الحيـــاة صِراعٌ فيها الضعيف يُداسْ
ما فاز فى ماضـغَيْها إلا شـــديد المراسْ
للخِبِّ فيها شـــجونٌ فكن فتى الاحتراسْ
الكونُ كونُ شـقاءٍ الكون كون التباسْ
الكون كون اختلاقٍ وضجّة واختـــلاسْ
سيان عندىَ فيه السرور ، والابتئـــاسْ

* * *

بين النـــوائب بونٌ للناس فيـه مزايا
البعض لم يدر إلا البِلى ينـادى البلايا
والبعض ما ذاق منهـا سَوى حقـــير الرزايا

إن الحيـــاة سُباتٌ سينقضى بالمنـــايا
وما الرؤى فيـه إلا آمالنـــا ، والخطايا
فإن تيقظ كانت بين الجفـون بقـايا

* * *

إن السكينة رُوح فى الليل ليست تُضامْ
والروح شـــعلة نور من فوق كل نظامْ
لا تنطفى برياح الـ ـإرهاق أو بالحسـامْ
بل قد يعج لظاهـا سيلاً ، ويطغى الضِّرامْ
كل البلايا . . . جميعا تفنى ويحيا السلامْ !
والذل ســـبة عار لا يرتضيه الكرامْ !

* * *

الفجر يسطَع بعد الـ ـدجى ، ويأتى الضياء
ويرقد الليـــل قسرًا على مِهاد العفـاء
وللشـــعوب حياة حينا وحينا فنـــاء
واليأس موت ولـكن موت يثير الشـقاء
والجِدُّ للشـعب روح توحى إليه الهنـاء
فإن تولَّتْ تصدَّت حياته للبـــلاء

غرفة من يم

ضعفُ العزيمةِ لَحْدٌ ، فى سكينته ... تقضى الحياةُ ، بَنَاهُ اليأسُ والوجَلُ
وفى العزيمة قُوَّاتٌ ، مُسَخَّرةٌ ... يخِرُّ دون مداها الشامخُ الجبَلُ
والناس شخصان : ذا يسعى به قَدَمٌ ... من القنوطِ ، وذا يسعَى به الأملُ
هذا إلى الموت ، والأجداثُ ساخرةٌ ، ... وذا إلى المجد ، والدُّنيا لَهُ خَوَلُ
ما كلُّ فعل يُجِلُّ النَّاسُ فَاعلَه ... مجداً ، فإنَّ الورى فى رأيهم خطَلُ
فى التماجد تمويهٌ ، وشعْوذَةٌ ، ... وفى الحقيقة ما لا يدركُ الدَّجَلُ
ما المجدُ إلاَّ ابتسامات يفيض بها ... فمُ الزمانْ ، إذا ما انسدَّتِ الحِيَلُ
وليس بالمَجد ما تشقى الحياة به ... فيحسدُ اليومُ أمْسًا ، ضمّه الأزَلُ
فما الحروب سوى وحْشيَّةٍ ، نهضتْ ... فى أنفُسِ الناسِ ، فانقادتْ لها الدولُ
وأيقظت فى قلوب الناسِ عاصفةً ... غام الوجودُ لها ، واربْدَّت السُّبُلُ
فالدَّهرُ منتعلٌ بالنارِ مُلتحفٌ ... بالهوْلِ ، والويْلِ ، والأيامُ تَشْتَعِلُ
والأرض داميَةٌ ، بالإثم طامية ، ... ومارِدُ الشرِّ فى أرجائها ثَمِلُ
والموْتُ كالمارد الجبَّار ، منتصِبٌ ... فى الأرض ، يخطف من قدخانه الأجلُ
وفى المهامه أشلاء ، ممزَّقَة ... تتلو على القفر شعرًا ، ليس يُنْتَحَلُ

أنشودة الرعد

فى سكون الليل لما عانق الكونَ الخشوع
واختفى صوت الأمانى خلف آفاق الهجوع

* * *

رتّل الرعد نشيدا ردّدته الكائنات
مثل صوت الحق إن صا ح بأعماق الحياة

* * *

يتهادى بضجيج فى خلايا الأوديهْ
مثل جبّار بنى الجِنِّ بأقصى الهاويهْ

* * *

فسألتُ الليل ، والليـ ـل كئيبٌ ، ورهيبْ
شاخصا بالليل والليـ ـل جميلٌ ، وغريبْ :

* * *

« أترى أنشودة الرعـ ـد أنينٌ وحنينْ
رنّمتها بخشوع مهجة الكون الحزين ؟

* * *

أم هى القوة تسعَى باعتساف واصطخاب
يتراءى فى ثنايا صوتها روح العذاب ؟ »

* * *

غير أن الليل قد ظـ ـلّ رَكُودًا ، جامدًا
صامتا مثل غدير القـ ـفر ، من دون صدى !

فى الظلام

رفرفت فى دُجية الليل الحزين زُمرةُ الأحلامْ
فوق سرب من غمامات الشجون ملؤها الآلامَ

* * *

شخَصت ، لما رأت ، عينُ النجوم بعثةَ العُشّاق
ورمتْها من سماها بِرجُوم تسكب الأحراق

* * *

كنت إذْ ذَاك على ثوْب السكون أثر الأحزانْ
والهوى يسكب أصداء المنون فى فؤادٍ فانْ

* * *

ساكتاً مثل جميع الكائناتْ راكدَ الألحان
هائمٌ قلبى بأعماق الحياة تائهٌ ، حيران

* * *

إنّ لِلْحب على الناس يدًا تقصف الأعمار
وله فجرًا على طول المدى ساطعَ الأنوار

* * *

ثورةُ الشر ، وأحلامُ السلام ، وجمالُ النور
وابتسامُ الفجر فى حزن الظلام ، فى العيون الحور

مأتم الحب

ليت شعرى !

أىُّ طـــير

يسمع الأحزان تبكى بين أعماق القلوب

ثم لا يهتف فى الفجر ، برنّات النحيب

بخشوع ، واكتئاب ؟

* * *

لســـت أدرى

أىُّ أمـــر

أخرس العصفور عنّى ، أترُى مات الشعورْ

فى جميع الكون ، حتى فى حُشاشاتِ الطيورْ؟

أمْ بكى خلف السحاب ؟

* * *

فى الديـــاجى

كم أنـــاجى

مَسْمعَ القبرِ ، بغصّات نحيبى ، وشجونى

ثم أصغى ، علّنى أسمع ترديد أنينى

فأرى صوتى فريدا !

* * *

فأنـــــــادى :

« يا فـــؤادى »

« مات من تهوى ! وهذا اللحد قد ضمّ الحبيب »

« فابكِ يا قلب بما فيك من الحزن المذيب »

« ابْكِ ياقلب ، وحيد ! »

* * *

ذلّ قلـــبى ،

مات حـــبّى !

فاذرفى يا مقلةَ الليل ، الدرارِى عـــبرات

حول حبّى ، فهو قد ودّع آفاق الحيـــاة

بعد أن ذاق اللهيب

* * *

واندبيـــــــه ،

واغسليـــــــه ،

بدموع الفجر ، من أكواب زهر الزَّنبَق

وادفنيـــه بجلال ، فى ضفاف الشفق

ليرى روح الحبيب

* * *

الكآبة المجهولة

أنا كئيب ،

أنا غـــريب ،

كآبتى خالفت نظائرها
غريبةٌ فى عوالم الحزَن
كآبتى فكرةٌ مُغَرِّدةٌ
مجهولةٌ من مسامع الزمن

لكننى قد سمعت رنَّتها
بمهجتى ، فى شبابىَ الثمل
سمعتُها ، فانصرفتُ مكتئبا
أشدو بحُزنى ، كطائر الجبل

سمعتهـــا أنّةً يرجِّعُها
صوتُ الليالى، ومهجةُ الأزل
سمعتها صرخةً مضعْضَعةً
كجدولٍ فى مضايق السبل

سمعتها رنّةً ، يعانقُها
شوقٌ إلى عالمٍ يضعضعها
ضعيفةً مثل أنّةٍ صعدتْ
من مهجةٍ هدَّها تَوجُّعها

كآبةُ الناس شعلةٌ ، ومتى
مرّت ليالٍ خبتْ مع الأمد
أمّا اكتئابي فلوْعةٌ سكنتْ
روحي ، وتبقى بها إلى الأبد

* * *

أنا كئيب ، أنا غريب ،
وليس في عالم الكآبة منْ
يحملُ معشارَ بعضِ ما أجِدُ
كآبتي مُرَّةٌ ، وإن صرختْ
روحي فلا يسمعنَّها الجسد

كآبتي ذات قسوةٍ صَهرت
مشاعري في جهنَّمِ الألَمِ
لم يسمع الدَّهرُ مثل قسْوتها
في يقظة قطْ ، لا ، ولا حلُمِ

كآبتى شعلةٌ مؤجَّجة ،
تحت رماد الكون تستعر
سيعلم الكونُ ما حقيقتها
ويطلع الفجر يوم تنفجر

* * *

كآبةُ الناس شعلةٌ ، ومتى
مرّت ليال خبت مع الأمد
أما اكتئابى فلوعةٌ ، سكنت
روحى ، وتبقى بها إلى الأبد

أيها الليل

أيها الليل ! يا أبا البؤس والأهْوَا لِ ، ! يا هيكل الحياة الرهيب !
فيك تجثـو عرائس الأمل العذ ب ، تُصلِّى بصوتها المحبوب
فيُثير النشيدُ ذكرى حياة حجبتها غيـوم دهر كئيب
وترف الشجون من حول قلبى بسكون ، وهيبة ، وقطوب
أنت يا ليل ! ذرَّةٌ ، صعدت للكون ، من موطئ الجحيم الغضوب
أيها الليل ! أنت نغْم شجىٌّ فى شفاه الدهور ، بين النحيب
إن أنشودة السكون ، التى ترتج ، فى صدرك الركود ، الرحيب
تُسمع النفسَ ، فى هدوء الأمانى رنةَ الحق ، والجمال الخَلُوب
فتصوغ القلوبُ ، منها أغاريدًا ، تهـز الحياة هز الخطـوب
تتلوَّى الحيـاة ، من ألم البؤس ، فتبكى ، بلوعة ونحيب
وعلى مِسمعيك ، تنهلّ نوحا وعويلا مُرًّا ، شجونُ القلوب
فأرى برقعا شفيفا ، من الأو جاع ، يُلقى عليكَ شجوَ الكئيب
وأرى فى السكون أجنحة الجـ بار ، مخضلةً بدمع القلـوب
فلك الله ! من فؤاد رحيم ولك الله ! من فؤاد كئيب
يهجع الكون ، فى طمأنينـة العصفور ، طفلا ، بصدركَ الغر يب
و بأحضانك الرحيمة يستيقظ ، فى نضرة الضحوك ، الطروب

شادياً ، كالطيور بالأمل العـذ ب ، جميلاً ، كبهجة الشؤبوب
يا ظلام الحياة ! يا روعةَ الحزن ! ويا معزفَ التعيس الغريب
إن فى قلبكَ الكئيبِ ، لمرتادًا لأحلام كل قلب كئيب
وبقيثارة السكينة ، فى كفَّيْـكَ ، تنهلّ رنّةُ المكروب
فيك تنمو زنابق الحلم العـذ ب ، وتذوى لدى لهيب الخطوب
خلف أعماقك الكئيبة تنسا ب ظِلال الدهور ، ذاتَ قطوب
وبفَوْديك ، فى ضفائركَ السـودِ ، تدبُّ الأيامُ أىَّ دَبيبِ

* * *

صاحِ ! إن الحياة أنشودة الحز ن ، فرتِّلْ على الحياة نحيبى
إن كأس الحياة مترعة بالدمـ ـع ، فاسكب على الصباح حبيبى
إن وادى الظلام يطفح بالهو ل ، فما أبعد ابتسام القلوب !
لايغُـرَّنَّك ابتسام بنى الأر ض فخلف الشعاع لذعُ اللهيب
أنت تدرى أن الحياة قطو ب وخطوب ، فما حياة القطوب ؟
إن فى غيبـة الليالى ، تباعا لخَطيب يمرّ إثر خطـوب

* * *

سَدَّدَتْ فى سكينة الكون ، للأعما ق ، نفسى لحظا بعيدَ الرُّسوب
نظرةٌ مزقت شـغاف الليا لى فرأت مهجة الظلام الهيوب
ورأت فى صميمها ، لوعة الحز ن ، وأصغت إلى صُرَاخ القلوب
لا تحاول أن تنكر الشجو ، إنى قد خبرت الحيـاة خُبر لبيب

فتبرمتُ بالسكينة والضجـ ـة ، بل قد كرهتُ فيها نصيبى . . .
كن كما شاءت السماء كئيبًا أىُّ شىءٍ يسر نفس الأريب ؟
أنفوسٌ تموت ، شاخصةً بالهو ل ، فى ظلمة القنوط العصيب ؟
أم قلوبٌ محطماتٌ على ساحل لُـ ـجِّ الأسى ، بموج الخطوب ؟
إنما الناس فى الحياة طيـورٌ قد رماها القضا بواد رهيب
يعصف الهولُ فى جوانبـه السو دِ فيقضى على صَدَى العندليب

* * *

قد سألتُ الحيـاة عن نغمة الفـجر ، وعن وَجْمة المساء القَطوب
فسمعتُ الحيـاة ، فى هيكل الأحزا ن ، تشدو بلحنها المحبوب :
ما سكوتُ السماء إلا وجـومٌ ما نشيد الصباح غير نحيب .
ليس فى الدهر طائرٌ يتغـنى فى ضفاف الحياة غيرَ كئيب
خضَّب الإكتئاب أجنحة الأيا م ، بالدمع ، والدم الأسكوب
وعجيبٌ أن يفرح الناس فى كـهف الليالى ، بحزنها المشبوب !

* * *

كنت أرنو إلى الحياة بلحظٍ باسم ، والرجاء دون لغوب
ذاك عهد حسبته بسمة الـ فجر ، ولـكنه شعاع الغروب
ذاك عهد ، كأنّه رنّة الأفرا ح ، تنساب من فم العندليب
خفقت — ريثما أصختُ لها بالقلـ ب ، حينا — وبُدِّلتْ بنحيب

إن خمر الحياة وردية اللون ، ولكنها سِمام القلوب

* * *

جرفتْ من قرارة القلب أحلا مى ، إلى اللحد ، جائراتُ الخطوب
فتلاشت على تخوم الليالى وتهاوت إلى الجحيم الغَضوب
وثوى فى دُجُنَّة النفس ، ومضٌ لم يزل بين جَيْئَةٍ ، وذُهوب
ذِكرياتٌ تميس فى ظُلمة النفس ، ضِئالا ، كرائعات المشيب

* * *

يالقلب تجرع اللوعةَ المر ة من جدول الزمان الرهيب !
ومضت فى صميمه شُعْلَةُ الحز ن ، فَعَشَّتْهُ من شعاع اللهيب . . .

شكوى أليم

على ساحل البحر ، أنّى يضجُّ صراخُ الصباح ونوحُ المسا
تنهَّدتُ ، من مهجةٍ أُترعت بدمع الشقاء وشوْك الأسى
فضاع التنهّدَ فى الضجّةِ
بما فى ثناياه من لوْعة
فسرتُ وناديتُ : «يا أمُّ ! هيّا
إلىّ ! فقد سئمتنى الحياهْ »

وجئت إلى الغاب ، أسكبُ أوجاعَ قلبى نحيباً ، كلفح اللّهيبْ
نحيباً تَدافع فى مهجتى ، وسالَ يَرنُّ بندب القلوب
فلم يفْهم الغابُ أشجانَهُ
وظلَّ يُرَدِّد ألحـــانَهُ
فسرتُ وناديْتُ : «يا أمُّ ! هيَّا
إلىَّ ! فقد عذّبتنى الحياهْ »

وقمتُ على النَّهر ، أهْرِق دمعًا تفجّر من فيضِ حُزْنى الأليمْ
يسيرُ بصمتٍ على وجْنتىَّ ويلمع مثل دموع الجحيم
فما خفَّفَ النهرُ من عــذْوهِ
ولا سكت النهرُ عن شذْوهِ

فسرتُ ، وناديتُ : « يا أُمّ! هيّا
إليّ ! لقد أضجرتنى الحياهْ »

* * *

ولمّا ندبتُ ولم ينفع
وناديْتُ أُمّى فلمْ تسمع
رجعتُ بحزنى إلى وحدتى
وردَّدْتُ نَوْحِى على مِسمعى
وعانقتُ فى وحدتى لوْعتى
وقلت لنفسِى : «ألا فاسكتى!»

الزنبقة الذاوية

أزنبقةَ السفح ! مالى أراكِ تعانقكِ اللوعةُ القاسيهْ ؟
أفى قلبكِ الغضِّ صوتُ اللهيب ، يرتِّلُ أنشودة الهاويهْ ؟
أأسمعكِ الليلُ ندبَ القلوب أأرشفكِ الفجرُ كأسَ الأسى؟
أصبَّ عليكِ شعاعُ الغروب نجيعَ الحياة ، ودمعَ المسا ؟
أأوقفكِ الدهرُ حيث يُفجِّ رُ نوحُ الحياة صُدوعَ الصدورْ ؟
ويَنبثِقُ الليل طيفاً ، كئيباً رهيباً ، ويخفقُ حزنُ الدهورْ ؟

* * *

عذاب

إذا أضجرتكِ أغانى الظلامِ فقد عذّبتنى أغانى الوجومْ
وإن هجرتكِ بناتُ الغيوم ، فقد عانقتنى بنات الجحيم
وإن سكب الدهر فى مِسمعيْكِ نحيبَ الدجى ، وأنينَ الأملْ
فقد أجّج الدهر فى مهجتى شُواظاً من الحزَن المشتعل
وإن أرشفتْكِ شفاهُ الحياة رُضابَ الأسى ، ورحيقَ الألمْ
فإنّى تجرّعتُ من كفِّها كُؤوساً ، مؤجّجةً ، تضطرم

* * *

أصيخى ! فما بين أعشار قلبى يرِفّ صدى نوحكِ الخافت

معيـدًا على مهجتى بخفيف جناحيه صوتَ الأسى المـائت

وقد أترع الليلُ بالحب كأسى وشـعشعها بلهيب الحيـاهْ

وجـرّعنى من ثُمالاتِه مرارةَ حزنٍ ، تُذيب الصفاهْ

إلىَّ ! فقد وحّـدت بيننا قساوةُ هذا الزمان الظلومْ

فقد فجّرتْ فىَّ هذِى الـكلومَ كما فجّرت فيكِ تلك الـكلوم

* * *

وإن جرفتنى أكفُّ المنون إلى اللحْد ، أو سحقتكِ الخطوبْ

فحـزنى وحزنكِ لا يبرحانِ أليفيْنِ رغم الزمان العصيب

وتحتَ رواق الظلام الـكئيب إذا شمل الـكونَ روحُ السحَرْ

سيُسمَع صوتٌ ، كلحن شجىٍّ تطايَرَ من خَفَقات الوتر

يردِّدُه حُزْننا فى سكونٍ على قبرنا ، الصامتِ المطمئنْ

فنرقُد تحت التراب الأصمِّ جميعًا على نغمات الحزَنْ

شعري

شعري نُفَاثة صدري إنْ جاش فيه شعوري
لولاه ما انجاب عني غيمُ الحياة الخطير
ولا وجدتَ اكتئابي ولا وجدتَ سروري
به ترانى حزيناً أبكى بدمع غزير
به ترانى طَروباً أجرّ ذيلَ حُبوري

* * *

لا أنظم الشعرَ أرجو به رضاء الأمير
بمدحة أو رثاء تُهْدَى لرب السرير
حسبي إذا قلتُ شعرا أن يرتضيه ضميري

* * *

ما الشعر إلا فضاء يَرِفُّ فيه مقالى
فيا يسرّ بلادى وما يسرُّ المعالى
وما يثير شعوري من خافقات خيالى

* * *

لا أقرض الشعر أبغى به اقتناص نوال
الشعر إن لم يكن فى جماله ذا جلال

فإنمـــا هو طيف يَسْعَى بوادى الظلال
يقضى الحياة طريدًا فى ذلة ، واعتزال

* * *

يا شعر ! أنت ملاكى وطارِفِى ، وتلادى
أنا إليـــك مُراد وأنت نعم مرادى
قف ، لا تَدَعْنِى وحيدًا ولا أدعك تنادى
فهل وجدت حُساما يُناط دون نجاد

* * *

كم حطَّم الدهرُ ذا هِمَّةٍ كثيرَ الرَّماد
ألقاه تحت نعالٍ من ذلَّة وحـــداد
رفقًا بأهل بلادِى ! يا منجنون العوادى !

يا شعر

يا شعرُ أنتَ فمُ الشعور ، وصرخةُ الروح الكئيبْ
يا شعر أنت صدى نحيب القلب ، والصبِّ الغريب

يا شـــعر أنت مدامعٌ عِلقتْ بأهداب الحياة
يا شعر أنت دمٌ ، تفجّر من كلوم الـكائنـات

يا شعر ! قلبي — مثلما تدرى — شقيٌّ ، مظلمُ
فيه الجراحُ ، النجْلُ ، يقطر من مغاورها الدمُ

جمدت على شفتيه أرزاء الحيـــاة العابسه
فهو التعيسُ ، يُذيبه نوح القـــلوب البائسهْ

أبدًا ينـوح بحرقةٍ ، بين الأمانى الهاويهْ
كالبلبل الغرِّيد ما بين الزهـــور الذاويهْ

كمْ قد نصحتُ له بأن يسلو ، وكمْ عزّيتُـــه
فأبى ، وما أصغى إلى قولى ، فما أجْديته

كم قلت : « صبرًا يا فؤادُ ! ألا تَـكُفّ عن النحيبْ ! »
فإذا تجلّدتِ الحـــياةُ تبدّدتْ شُعَلُ اللهيب »

«يا قلب ! لا تجزع أمامَ تصلُّبِ الدهر الهصورْ»

«فإذا صرختَ توجُّعًا هزئت بصرختكَ الدهـــورْ»

«يا قلب ! لا تسخط على الأيام ، فالزهر البديعْ»

«يصغى لضجات العواصف قبل أنغام الربيع»

«يا قلب ! لا تقنعْ بشوك اليأس من بين الزهورْ»

«فوراء أوجاع الحيـاة عـــذوبةُ الأمل الجسور»

«يا قلب ! لا تسكبْ دموعَكَ بالفضـاء فتندمِ»

«فعلى ابتسامات الفضـــاء قساوةُ المتهكِّمِ»

لـكنَّ قلبى — وهو مُخْضلُّ الجوانب بالدموعْ —

جاشتْ به الأحزانُ ، إذ طفحت بها تلك الصدوع

يبكى على الحـــلم البعيد بلوعةٍ ، لا تنجلى

غردًا ، كصَدَّاح الهواتف فى الفلا ، ويقول لى :

«طهِّرْ كلومكَ بالدموع ، وخلِّها ، وسبيلَها»

«إن المدامع لا تضيع حقـيرها وجليلها»

«فَمِنَ المدامع ما تدفَّعَ جارفًا حَسَكَ الحيـاةْ»

«يرمى لهـاوية الوجود بكل ما يبغى الطغاةْ»

« ومن المدامع ما تألّق فى الغياهب كالنجوم »

« ومن المدامع ما أراح النفس من عبء الهموم »

فارحَم تعاسته ، ونُحْ معه على أحلامِـــهِ

فلقد قضى الحـــلمُ البديعُ على لظى آلامِهِ

يا شعر ! يا وحْيَ الوجودِ الحىّ ، يا لُغَةَ الملائكْ

غرِّدْ ، فأيّامِى أنا تبْـكِى على إيقـاع نائكْ

ردِّدْ على سمع الدجى أناتِ قلبى الواهيـهْ

واسكب بأجفان الزهـــور دموعَ قلبى الداميهْ

فلعلّ قلب الليل أرحم بالقـــلوب الباكيهْ

ولعلّ جفن الزهر أحفظ للدموع الجاريهْ

كم حرّكت كفُّ الأسى أوتارَ ذكّاك الحنينْ

فتهاملتْ أحزانُ قلبى فى أغاريد الأنين

فلَكَمْ أرَقْتُ مدامعى ، حتى تقرّحتِ الجفونْ

ثمّ التفتُّ ، فلم أجـد قلبًا يقاسمنى الشجون

فعسى يكون الليل أرحم ، فهو مثلى يندب

وعسى يصـون الزهر دمعى ، فهو مثلى يسكب

قد قنّعتْ كفُّ المساء الموتَ بالصّمت الرهيب ،
فغدا كأعماق الكهوف ، بلا ضجيج أو وجيب

يأتي بأجنحة السكون ، كأنه الليل البهيم
لكن طيفَ الموت قاسٍ ، والدجى طيفٌ رحيم

ما للمنية لا ترقُّ على الحيـــاة النائحه ؟
سيّان أفئدةٌ تئن ، أو القلوب الصـــادحه

يا شِعرُ ! هل خُلِقَ المنون بلا شعورٍ كالجماد ؟
لا رِعشة تعرو يدَيْه إذا تملّقَه الفؤاد ؟

أرأيتَ أزهارَ الربيع ، وقد ذوتْ أوراقها
فهوت إلى صـدر التراب ، وقد قضت أشواقُها ؟

أرأيت شحرورَ الفلا ، مترنما بين الغصون
جمـد النشيدُ بصدره ، لما رأى طيفَ المنون ؟

فقضى ، وقد غاضت أغاريدُ الحيـاة الطاهرهْ
وهوى من الأغصان ، ما بين الزهور الباسرهْ ؟

أرأيتَ أمَّ الطفل تبكى ذلك الطفلَ الوحيـد
لمّا تناوله ، بعنفٍ ، ساعدُ الموت الشديد ؟

أسمعتَ نَوْحَ العاشقِ الولهانِ ، ما بين القبور
يبكى حبيبتَه ؟ فيالِمَصارع الموت الجسور !

طفحتْ بأعماق الوجود سكينةُ الصبر الجليد
لما رأى عدل الحياة يضمه اللحدُ الكنود

فتدفقتْ لحناً ، يردده على سمع الدهور
صوتُ الحياة بضجة . . ، تسعى على شفة البحور

يا شعرُ ! أنتَ نشيدُ أمواج الخضم الساحرهْ
الناصعات ، الباسمات ، الراقصات ، الطاهرهْ

السافرات ، الصادحات مع الحياة إلى الأبد ؟
كعرائس الأمل الضحوك ، يَمِسْنَ ما طال الأَمَد

ها إن أزهارَ الربيع تبسمتْ أكمامُها
ترنو إلى الشَّفَق البعيدِ ، تغُرُّها أحلامُها

فى صدرها أملٌ ، يحدِّق نحو هاتيك النجوم
لكنه أملٌ ، ستلحده جبابرةُ الوجوم

فلسوف تغمض جفنها ، عن كل أضواء الحياة
حيث الظلام مُخَيِّمٌ فى جو ذيّاك السبات

ها إنها همست بآذان الحيـــاة غريدَها
فتاتْ عصافيرُ الصـــــباح ، صُداحَها ونشيدَها

يا شعرُ ! أنت نشيد هاتيك الزهور الباسمهْ
يا ليتنى مثل الزهور ، بلا حيـــــاة واجمه

إن الحياة كئيبةٌ ، مغمورة بدموعها ! !
والشمسُ أضجرها الأسى ، فى صحوها وهجوعها

فتجرعت كأسًا دِهاقا ، من مُشَعشَعة الشَّفَق
فتمايلتْ ، سَكرى إلى كهف الحياة . . ولم تُفِق

يا شعرُ ! أنتَ نحيبها لما هَـــوَتْ لسُباتها
يا شعرُ ! أنتَ صُداحها ، فى موتها وحياتها

انظر إلى شفق السماء ، يفيض عن تلك الجبـال
بشعاعه الخـــــلاب ، يغمرها ببسمات الجمال

فيثير فى النفس الكئيبة عاصفًا لا يركد
ويؤجِّج القلبَ المعذَّبَ شـــــعلةً لا تخمد

يا شعرُ ! أنت جمال أضواء الغروب الساحرهْ
يا همسَ أمواج المســـــاء ، الباسماتِ الحائرهْ

يا نايَ أحـــــلامى الحبيبةِ ! يا رفيقَ صَبابتى
لولاكَ متُّ بلوعتى ، و بئـــــقوتى ، وكآبتى

فيكَ انطوتْ نفسى ، وفيكَ نفختُ كلَّ مشاعرى
فاصدح على قمم الحيـــــاة بلوعتى ، يا طائرى

زئير العاصفة

تسائلني : « ما لي سكتُّ ، ولم أُهِبْ بقومي ، وديجورُ المصائب مظلم »
« وسيل الرزايا جارفٌ ، متدفّعٌ غضوبٌ ، ووجه الدهر أربدُ ، أقتم ؟»

* * *

سكتُّ ، وقد كانت قناتيَ غضّةً تُصيخ إلى همس النسيم ، وتحلُم
وقلتُ ، وقد أصغتْ إلى الريح مرّةً فجاش بها إعصـــاره المتهزّم
وقلتُ ، وقد جاش القريض بخاطري كما جاش صخّابُ الأواذيّ ، أسحم :

* * *

« أرى المجد معصوبَ الجبين مُجدّلاً على حَسَـكِ الآلام ، يغمره الدم »
« وقد كان وضّاح الأسارير ، باسماً يهبُّ إلى الجُلّى ، ولا يتـــبرّم »

* * *

« فيا أيها الظلم المصـــعّر خدّه رويدك ! إن الدهر يبني ويهدم »
« ســـيثأر للعـزّ المحطّم تاجه رجالٌ ، إذا جاش الرّدى فهُمُ هُمُ »
« رجالٌ يرَوْن الذُّلَّ عارًا وسُبّةً ولا يرْهبون الموتَ ، والموتُ مقدم »
« وهل تعتـــلي إلا نفوسٌ أبيّةٌ تصدّع أغلالَ الهوانِ ، وتحطِم »

إلى الطاغية

يقولون : « صوت المستذلّين خافتٌ ... وسمع طغاة الأرض (أطرشُ) أصخمُ »
وفى صيحة الشعب المسخَّر زعزعٌ ... تخِرُّ لها شُمُّ العروش ، وتُهْدَمُ
ولمعةُ الحق الغضوب لها صدى ... ودمدمة الحرب الضروس لها فمُ
إذا التفَّ حول الحق قوم فإنّه ... يصرِّمُ أحداثَ الزمان ويُبْرِم

* * *

لك الويل يا صَرْحَ المظالم من غدٍ ... إذا نهض المستضعفون ، وصمَّموا !
إذا حطَّم المستعبَدون قيودَهم ... وصبُّوا حميم السخط أيّان تعلم . . !
أغرَّك أن الشعب مُغْضٍ على قذى ... وأنَّ الفضاء الرَّحْبَ وسنانُ ، مظلم ؟
ألا إنَّ أحلامَ البلاد دفينةٌ ... تجمجم فى أعماقها ما تجمجم
ولكنْ سيأتى بعد لأْيٍ نشورها ... وينبثق اليوم الذى يتزنَّم
هو الحق يُغفى . . . ثمَّ ينهض ساخطا ... فيهدمُ ما شاد الظِّلام[1] ، ويحطم
غدا الرَّوْعِ ، إن هبَّ الضعيفُ ببأسه ، ... ستعلم من منّا سيجرفه الدَّمُ
إلى حيث تجنى كفُّه بذرَ أمسِه ... ومُزدَرِعُ الأوجاعِ لا بد ينـدم
ستجرع أوصابَ الحياة ، وتنتشى ... فتُصغى إلى الحق الذى يتكلم
إذا ما سقاك الدهر من كأسه التى ... قُرارتها صابٌ مَرِيرٌ ، وعلقم
إذا صعق الجبّار تحت قيوده ... يصيخ لأوجاع الحياة ، ويفهم ! !

---

(١) الظلام — بكسر الظاء : الظلم

السآمة

سئمتُ الحياة ، وما فى الحياة ... وما إن تجاوزتُ فجرَ الشبابْ
سئمتُ الليالى ، وأوجاعَها ... وما شعْشَعتْ من رحيق بصاب
فطَمتْ كأسِى ، وألقيتُها ... بوادى الأسى ، وجحيم العذاب
فأنَّتْ ، وقد غمرتْها الدموع ... وقرَّتْ ، وقد فاض منها الحباب
وألقى عليها الأسى ثوْبَه ... وأقبرَها الصمتُ والإكتئاب

* * *

فأين الأمانى وألحانُها ؟ ... وأين الكؤوس ؟ وأين الشراب ؟
لقد سحقتْها أكفُّ الظلام ... وقد رشفتْها شفاهُ السراب

* * *

فما العيش فى حومةٍ بأسُها ... شديدٌ ، وصدَّاحها لا يُجاب
كئيبٌ ، وحيدٌ بآلامِه ... وأحلامِه ، شدْوُهُ الانتحاب
ذوتْ فى الربيع أزاهيرها ... فنمْنَ ، وقد مصَّهُنَّ التّرابْ
لَوَيْنَ النُّحورَ على ذِلَّةٍ ... ومُتْنَ ، وأحلامَهنَّ العذاب
فحالَ الجمالُ ، وغاض العبيرُ ، ... وأذْوى الرَّدَى سحرَهُنَّ العُجاب

الحب

الحبُّ شعلةَ نورٍ ساحرٍ ، هبطتْ ... من السماءِ ، فكانتْ ساطعَ الفلَقِ
ومزّقت عن جفون الدّهر أغشيَةً ... وعن وجوه الليالى بُرقَعَ الغسق
الحب روحٌ إلهىٌّ ، مجنَّحةٌ ... أيامُه بضياء الفجر والشفق
يطوف فى هذه الدنيا ، فيجعلها ... نجمًا ، جميلاً ، ضحوكا ، جدَّ مؤتلق
لولاه ما سُمِعتْ فى الكون أغنيةٌ ... ولا تآلفَ فى الدنيا بَنُو أُفُقِ
الحبُّ جدولُ خمرٍ ، من تذوّقه ... خاض الجحيمَ ، ولم يُشْفِق من الحرق
الحب غاية آمال الحياة ، فما ... خوْفِى إذا ضمَّنى قبرى ؟ وما فَرَقى ؟

أيها الحب

أيها الحب ! أنت سر بلائى ... وهمومى ، وروعتى ، وعنائى
ونحولى ، وأدمعى ، وعَذابى ... وسقامى ، ولوعتى ، وشقائى

* * *

أيها الحب ! أنت سرّ وجودى ... وحياتى ، وعزّتى ، وإبائى
وشعاعى ما بين ديجور دهرى ... وأليفى ، وقُرتى ، ورجائى

* * *

يا سلافَ الفؤاد ! يا سُمَّ نفسى فى حيـاتى ! يا شدتى ! يا رخائى !
ألهيبٌ يثور فى روضة النفس ، فيطغى ، أم أنت نور السماء ؟

* * *

أيها الحب قد جرعتُ بك الحُز ن كؤوسًا ، وما اقتنصتُ ابتغائى
فبحق الجمال ، يا أيها الحـ ـب حنانَيْك بى ! وهوِّن بلائى

* * *

ليت شعرى ! يا أيها الحب ، قل لى : مِنْ ظلام خُلقتَ ، أم من ضياء ؟

الدّموع

ينقضى العيش بين شوق ويأس والمنى بين لوعـة وتأسِّ
هـذه سُنَّةُ الحياة ، ونفسى لاتوَدُّ الرحيق فى كأس رِجس
مُلِئَ الدهر بالخداع ، فكم قد ضلَّلَ الناسَ من إمام وقَسِّ
كلما أسأل الحياة عن الحق تكفُّ الحياةُ عن كل همس
لم أجد فى الحياة لحناً بديعاً يستبينى سوى سكينة نفسى
فسئمت الحيـاةَ ، إلاَّ غرارًا تتلاشى به أناشيدُ يأسى

* * *

ناولتنى الحياة كأساً دِهاقا بالأمانى ، فما تناولتُ كأسى

وسقتنى من التعاسة أكوابًا تجرعتها ، فياشد تعسى !
إن فى روضة الحياة لأشواكًا بهـا مُزِّقت زنابق نفسى

* * *

ضاع أمسى ! وأين منِّىَ أمسى ؟ وقضى الدهرُ أن أعيش بيأسى
وقضى الحبُّ فى سكون مريعٍ ساعةَ الموت بين سخط وبؤس
لم تُخَلِّفْ لىَ الحياة من الأمس سوى لوعةٍ ، تهبُّ وترمى
تتهادى ما بين غصات قلبى بسكونٍ وبين أوجاع نفسى
كخيال من عالم الموت ، ينساب بصمتٍ ما بين رمْسٍ ورمْس
تلك أوجاعُ مهجةٍ ، عذَّبتْها فى جحيم الحياة أطيافُ نحس

أغنية الأحزان

غنِّى أنشودة الفجر الضَّحوكْ
أيها الصداحْ !
فلقد جرّعنى صوتُ الظلام
ألَمًا علّمنى كره الحياةْ
إن قلبى مَلَّ أصداء النواح
غننى ، يا صاحْ !

* * *

حطّمت كفُّ الأسى قيثارتى
فى يد الأحـــلام
فقضت صَمتا ، أناشيدُ الغـرامْ
بين أزهار الخـريف الذاويهْ
وتلاشت فى سكون الاكتئاب
كصـدى الغـــرّيد

* * *

كُفَّ عن تلك الأغانى الباسمهْ
أيها العصـــفورْ !
فحياتى ألِفَتْ لحنَ الأسى
من زمانٍ قد تقضّى ، وعَسَى
أن يثير الشّدوُ ، فى صمت الفؤادْ
أنّةَ الأوتار . . !

* * *

لا تغنينى أغاريد الصـباحْ
بلبـــلَ الأفراح !
فؤادى وهـو مغمور الجراح
بتباريح الحيـاة الباكيهْ
ليس تستهويهِ ألحانُ السرور
وأغـانى النـــور

* * *

إنَّ مَنْ أصغى إلى صوت المَنون
وصدى الأجـــداث

ليس تستهويه ألحانُ الطيورْ
بينَ أزهار الربيع الســاحرهْ
وابتسامات الحيـاة ، السافرهْ
عن جـلال الله !

* * *

غنني يا صاحِ ! أناتَ الجحيمْ
واســـقني الآلام

أترِع الكأسَ بأوجاع الهموم
واسقني ، إنّي كرهتُ الابتسام
غنني ندبَ الأماني الخائبهْ
والليـالي الســـود

* * *

غنني صـوت الظلام المكتئبْ
إنـــني أهـــواهْ

هاكَ كأس القلب فاملأها نُواح
واسكب الحُزنَ بها حتّى الصباحْ !
إنها من طينـة الحزن المَرير
صاغها الخَـــلاق

* * *

بئستْ الأفراحُ ، أفراح الحياة
إنها أحـــلام
تخلب اللب بألحانٍ عِذابْ
وأغاريـــدَ ، كأملاك السما
ثم لا تلبث أن تذوى كما
تذبل الأزهـــارْ

* * *

خبّرينى ، ما الذى خلف الغيوم ...؟
ربةَ الأحـــلامْ
أفتى الهـــولِ ، وجبّارُ الهموم ؟
أم عروسُ الأملِ العذبِ الشرود
تتهادى بين لألاء الصباح ؟
كملاك النـــورْ

* * *

أنا فى درب الحياة الغامضـــهْ
تائـهٌ ، حيران
بينما أبصر فى وجه الحيـــاهْ
ظلمةَ الأحـزان فى ظل الألمْ

إذ أرى فى جفنها نورًا ، بديعْ
باسما ، فتّـــانْ

***

ها أنا أسمع فى قلب الحيـاة
صـــيحةَ الآلام

مُرَّةً تنسـاب ، من قلب حطيم
ملأ الحزنُ أقاصيه دمـــوعْ
ها أنا أسمع أصـوات السرور
كَضَّـــتِ الأيام

المجد

يودُّ الفتى لو خاض عاصفة الردى ... وصدَّ الخميسَ المُجْرَ ، والأسدَ الوَرْدَا

ليدرك أمجاد الحروب ، ولو درى ... حقيقتَها ما رام من بينها مجْدَا

فما المجد فى أن تُسكِرَ الأرض بالدِّما ... وتركبَ فى هيجائها فرَسًا نهْدَا

ولكنه فى أن تصـــدَّ بهمَّةٍ ... عن العالم المرزوء ، فيْضَ الأسى صدَّا

سِرْ مع الدهر

سر مع الدهر ، لا تصـدنَّك الأهوال ، أو تُفْزِعَنَّكَ الأحداثُ

سر مع الدهر ، كيفما شـــاءت الدنيا ، ولا يخدعنَّك النفَّاث

فالذى يرهبُ الحياةَ شقيٌّ ، سخرتْ من مصيره الأجداث

الذكرى

كنّا كزوجيْ طائر ، فى دوْحة الحب الأمينْ
نتلو أناشيد المنى بين الخمائل والغصـــون
متغرِّدَيْن مع البلابل فى السهول وفى الحزون
مَلأَ الهوى كأْس الحياة لنا ، وشعشعها الفُتون
حتَّى إذا كدنا نُرَشِّفُ خمرها ، غضب المنون
فتخطَّف الـكأسَ الخَلوبَ ، وحطَّم الجام الثمين
وأراق خمـر الحب فى وادى الـكآبة والأنين
وأهاب بالحُبِّ الوديـع ، فودَّع العُشَّ الأمين
وشـدا بلحن الموتِ فى الأُفُق الحزين المستكين
ثم اختفى خلف الغيوم ، كأنه الطيف الحزين . . .

* * *

يا أيها القلب الشجىّ ! إلام تخرسك الشـجون
رحماكَ قد عذَّبتنى بالصمت والدمع الهتـــون

مات الحبيب ، وكل ما قد كنتَ ترجو أن يكون !

فاصبرْ على سخط الزمان ، وما تصرِّفه الشئون

فلَسوْفَ يُنقذك المنونُ ، ويفرح الروح السجين . . .

* * *

ورِدُ الحياة مُرَنَّقٌ ، والموت مورده مَعين

ولربَّما شـاق الردى الداجى ، وأعماقُ المنون

قلبًا ، تروِّعه الحياة ، ولا تُهادنه السِّـنون

ومشاعرًا حسْرَى ، يسيرُ بها القنوط إلى الجنون

مناجاة عصفور

يا أيها الشادى المغرِّد ها هنا ... ثَمِلاً بغبطة قلبه المسرور

متنقِّلاً بين الخمائل ، تاليا ... وحْيَ الربيع الساحر المسحور

غرِّدْ ، ففى تلك السهول زنابقٌ ... ترنو إليك بناظرٍ منظور

غرِّدْ ، ففى قلبى إليك مودَّةٌ ... لكن مودَّة طائرٍ مأسور

هجرته أسراب الحمائم ، وانبرَتْ ... لعذابه جنِّيةُ الديجور . . .

غرِّدْ ، ولا ترهبْ يمينى ، إننى ... مثل الطيور بهجتى وضميرى

لكن لقد هاض التراب ملامعى ... فلبثتُ مثل البلبل المكسور

أشدُو برنَّاتِ النياحة والأسى ... مشبوبةً بعواطفى وشعورى

غرِّدْ ، ولا تحفل بقلبى ، إنه ... كالمعزف ، المتحطِّم ، المهجور

* * *

رتِّلْ على سمع الربيع نشيدَهُ ... واصدحْ بفيْضِ فؤادك المسجور

وانشد أناشيد الجمال ، فإنها ... روحُ الوجود ، وسلوة المقهور

أنا طائر ، متغرِّدٌ ، مترنِّمٌ ... لكن بصوت كآبتى وزفيرى

يهتاجنى صوتُ الطيور ، لأنَّه ... مُتدفِّقٌ بحرارة وطهور

ما فى وجود الناس من شىء به ... يَرْضَى فؤادى أو يُسَرُّ ضميرى

فإذا استمعتُ حديثَهم أَلْفَيْتُهُ ... غثا ، يفيض برِكَّةٍ وفتور

وإذا حضرتُ جموعَهم أَلْفَيْتُنِي ... ما بينهم كالبلبل المأسور

متوحِّدًا بعواطفى ، ومشاعرى ، وخواطرى ، وكآبتى ، وسرورى

يَلْتَابنى حَرَجُ الحياة كأننى منهم بوهدة جندل وصخور

فإذا سكتُّ تضجَّروا ، وإذا نطقت تذمَّروا من فكرتى وشعورى

آهٍ من الناس الذين بلَوْتُهم فقلوْتهم فى وحشتى وحبورى !

ما منهم إلا خبيث غادر متربِّص بالناس شرَّ مصير

ويودُّ لو ملك الوجودَ بأسره ورمى الورى فى جاحم مسجور

ليُبُلَّ غلَّتَه التى لا ترتوى ويكضَّ نهمة قلبه المفغور

وإذا دخلتُ إلى البلاد فإنّ أفكا رى ترفرف فى سفوح الطُّور

حيث الطبيعة حلوةٌ فتّانةٌ تختال بين تبرُّج وسفور

ماذا أودُّ من المدينة ، وهى غارقةٌ بموَّار الدَّم المهدور ؟

ماذا أودُّ من المدينة ، وهى لا ترثى لصوت تفجُّع الموتور ؟

ماذا أود من المدينة ، وهى لا تعْنو لغير الظالم الشرِّير ؟

ماذا أود من المدينة ، وهى مُرْتادٌ لكل دعارة وفجور ؟

* * *

يا أيها الشادى ، المغرِّد ها هنا ثملا بغبطة قلبه المسرور !

قبَّلْ أزاهير الربيع ، وغنِّها رنَمَ الصباح الضاحك المحبور

واشرب من النَّبع ، الجميل ، الملتوى ما بين دَوْحٍ صنوبر وغدير

واتركْ دموع الفجر فى أوراقها حتى تُرشِّفها عروسُ النور

فلربما كانت أنينا صاعدا فى الليل من متوجع ، مقهور

ذرفته أجْفانُ الصباح مدامعا ألأقة ، فى دوحة وزهور ...

الطفولة

لله ما أحلى الطفـــولة ! إنها حلم الحياة
عهدٌ كمعسول الرؤى ما بين أجنحة السبات . . .
ترنو إلى الدنيا ، وما فيها بعين باسمـــهْ
وتسير فى عدوات واديها بنفس حالمهْ . .

* * *

إن الطفـولة زهرة تهـتزُّ فى قلب الربيعْ
ريَّانةٌ مِن ريِّق الأنداء فى الفجـر الوديع
غنَّت لها الدنيا أغانى حبِّها وحبـــورها
فتأوَّدتْ تَشوى بأحـــلام الحياة ونورها

* * *

إن الطفـولة حقبـةٌ شـعريَّةٌ بشـــعورها
ودموعها ، وسرورها ، وطموحها ، وغرورها
لم تمش فى دنيا الـكآبةِ ، والتعاسة ، والعذاب
فترى على أضوائها ما فى الحقيقة من كِذاب

قالت الأيام

يا أيها السادر فى غيِّه !
يا واقفاً فوق حطام الجباهْ !
مهلاً ! ففى أنّات من دستهم
صوتٌ رهيبٌ سوف يدوى صداه ...

* * *

لا تأمننَّ الدهر ، إمَّا غفا
فى كهفه الداجى ، وطالت رُؤاه
فإن قضى اليومُ وما قبله
فمنى الغد الحىِّ صباحُ الحياهْ

* * *

يا أيها الجبار ! لا تزدرى
فالحق جبّارٌ ، طويل الأناهْ
يُغفى ، وفى أجفانه يقْظةٌ
ترنو إلى الفجر الذى لاتراهْ ...

المساء الحزين

أظلَّ الوجودَ المساء الحزين ، وفى كفه مِعزف لا يُبين
وفى ثغره بسمات الشجون ، وفى طرفه حسرات السنين
وفى صدره لوعة لا تَقِرّ ، وفى قلبه صعقات المنون
وقبَّله قبلاً صامتات ، كما يلثمُ الموتُ وَرْدَ الغصون
وأفضى إليه بوحى النجوم ، وسر الظلام ، ولحن السكون
وأوْحى إليْه مزاميرَه ، فغنَّتْ بها فى الظلام الحزُون
وعلَّمه كيف تأسَى النفوس ، ويقضى يؤوسًا لديها الحنين
وأسمعه صرخات القلوب ، وأنهله من سُلاف الشئون
فأغفى على صدره المطمئن ، وفى رُوحه حلم مستكين
قويٌّ ، غلوبٌ ، كسحر الجفون ، شجىٌّ ، لعوبٌ ، كزهر حزين
ضحوكٌ ، وقد بلَّته الدموع ، طروبٌ ، وقد ظلَّلته الشجون
تعانقه سكرات الهوى ، وتحضـــنه شهقات الأنين
يشابهُ رُوحَ الشباب الجميل إذا ما تألَّق بين الجفون
أعاد لنفسى خيالاً جميلاً . . . لقد حجبته صروف السنين
فطافت بها هجسات الأسى ، وعادت لها خطرات الجنون

* * *

أظلَّ الفضاءَ جناحُ الغروب ، فألقى عليــه جمالا كئيب
وألبسه حلَّةً من جلالٍ ، شجيٍّ ، قويٍّ جميلٍ ، غلوبْ
فنامت على العشب تلك الزهورُ لمرأى المساء الحزين الرهيب
وآبت طيور الفضاء الجميل لأوكارها ، فرِحاتِ القلوب
وقد أضرمت بأغاريدها خيالَ السماء الفسيح الرحيب
وولَّى رعاةُ السَّــوامِ إلى الحيِّ يزجونها فى صُمات الغروب
فتَثْغُو ، حنيناً لُحملانها ، وتقطفُ زهْرَ المروج الخصيب
وهم ينشدون أهازيجهم بصوت ، بهيجٍ ، فَرُوحٍ ، طروب
ويَسْتَمْنِحُونَ مزاميرهم ، فتمنحهم كلَّ لحنٍ عجيب
تطير به نسماتُ الغروب إلى الشفَق المستطير الخلوب
وتوحى لهم نظراتُ الصبايا أناشيد عهد الشباب الرطيب
وأقبــل كلٌّ إلى أهلِه ، سوى أمَلِى ، المستطار ، الغريب
فقد تاه فى مَعْسَبات الحياة ، وسُدَّتْ عليه مناحِى الدروب
وظلَّ شريداً ، وحيداً ، بعيداً ، يغالب عُنْف الحياة العصيب
وقد كان من قبلُ ذا غبطةٍ ، يرفرف حول فؤادى الخصيب

* * *

ولمَّــا أظلَّ المساء السماء ، وأسكر بالحزن روحَ الوجودْ
وقفت ، وساءلته : « هل يؤوب لقلبى ربيعُ الحياة الشَّرُود ؟ »
« فتخفقَ فيه أغانى الورود ، ويخضرَّ فردوسُ نفسى الحصيد ؟ »

« وتختال فيه عروس الصباح ، وتمرح نَشْوى بذاك النشيد ؟ »

« ويرجع لى من عراص الجحيم سلامُ الفؤاد ، الجميلُ ، العهيد ؟ »

« فقد كبَّلَتْه بناتُ الظلام ، وألقيْنَه فى ظلام اللحود ؟ »

فأصغى إلى لَهَفِي المستمرِّ ، وخاطبنى من مكانٍ بعيـد :

« تعودُ ادِّ كاراتُ ذاك الهوى ، ولـكنَّ سحر الهوى لا يعود »

فجاشتْ بنفسِى مآسى الحياة ، وسخطُ القنوط القوىُّ المَرِيد

ولمَّـا طغتْ عصَفاتُ القنـوط فمادتْ بكلِّ مكين ، عتيد

أهبت بقلبى ، الهلوع ، الجزوع ، وقد كان من قبلُ جلْدًا ، شديد :

« تجلَّدْ ، ولا تستكنْ للَّيالى ، فما فاز إلاَّ الصبورُ ، الجليد »

« ولا تأسَ من حادثات الدهور ، فخلف الدياجير فجر جديد »

« ولولا غيومُ الشتاء الغِضابُ لمـا نضَّدَ الروضُ تلك الورود »

« ولولا ظلام الحياة العبوسُ لمـا نسجَ الصبحُ تلك البرودْ »

بقايا الخريف

كرهتُ القصورَ ، وقطانَها ، وما حولَها من صراعٍ عنيفْ
وكيدِ الضعيف لسعى القويِّ ، وعصف القويِّ بجَهد الضعيف
وجاشت بنفسى دموع الحياة ، وعجَّتْ بقلبى رياح الصروف
لقلب الفقير الحطيم ، الكسير ودمع الأيامى السفيح الذريف
ونَوْحِ اليتامى على أمهات ، توارَيْنَ خلف ظلام الحتوف
فسرْتُ إلى حيث تأوى أغانى الربيع ، وتذوى أمانى الخريف
وحيث الفضا شاعرٌ ، حالمٌ ، يناجى السهول بوحيٍ ، طريف
وقد دثَّرته غيومُ المساء بظلٍّ ، حزينٍ ، ضريجٍ ، شفيف
وبين الغصون التى جرَّدتها ليالى الخريف ، القويِّ العَسُوف
وقفْتُ ، وحولى غديرٌ ، موات ، تمادتْ به غفوَاتُ الكهوف
قضتْ فى حفافيْه تلك الزُّهور ، فكفَّنها بالصقيع الخريف
سوى زهرةٍ شقيتْ بالحياةِ ، ومَلْبَثُها بالمُقام المخيف
يروِّعها فيه قصفُ الرعود ، ويحزنها فيه ندْبُ الزفيف
وَيلْتابُها فى الصباح السديمُ ، وفى الليلِ حلمٌ ، مريعٌ مخيف
وتُرْهِبُها غاديات الغمام ، وتؤْلمها كلُّ ريحٍ عصوف
وتَرْثُو لما حولها من زهور ، وما ثَمَّ إلا السحيقُ ، الجفيف

فتبكي بكاءَ الغريب ، الوحيدِ ، بِشجْوٍ كظيٍ ، ونَوْحٍ ضعيف
تباكى به لَيْلُها المستطارَ ، وتَرثي به ما طوته الحُتُوف
وتشكو أساها بياضَ النهارِ ، وتندُبُ حظَّ الحياة السخيف
ولكنْ لقد فقدتْ في الوجود رفيقًا مُصيخًا ، وقلبًا رءوف
فما ثَمَّ إلا الصخورُ القواسي ، وإلاَّ الصدى المستطارُ المخوف
فجادتْ بروحٍ شقيٍّ ، شجيٍّ ، لقد عذَّبته الليالي صنوف
وماتتْ ، وقد غادرتْها بقاعٍ من الأرض ضَنْكٍ ، حياةُ الصروف
فباتتْ حيالَ الغدير الأصمِّ ، وقد أخرس الموتُ ذاك الحفيف
وقد خضَّبتْها غيومُ المساء ، كغانيةٍ ضرَّجتها السيوف

فسلْها: «تُرى كيف غاض الأريجُ ؟ وكيف ذَوَى سحرُ ذاك الرفيف ؟»
« وكيف خَبَتْ بسماتُ الحياة بأجفانها ، وعراها الكسوف ؟»
« وكيف لَوَتْ جيدَها الحادثاتُ وألْوَتْ بذاك القوام اللطيف ؟ »
ذكرت بمضجعها المطمئنِّ ومرقدها في الثَّغير الجنيف
مصارعَ أمالَ الغابرات وخيْبَتَها في الصراع العنيف
فقلَّبتُ طرفي بمهوَى الزهور وصعَّدته في الفضاء الأسيف
وقلت : « هُوَ الكونُ مَهْدُ الجمال ولكنْ لكل جمالٍ خريف! ... »
وأطرقتُ ، أصغي لهمس الأسى وقد غَشِيَ النفسَ همٌّ كثيف
وغاضتْ ثُمالةُ نور النهار وأرخى ظلامُ الوجود السجوف

أغنية الشاعر

يا ربةَ الشـــعرِ والأحلامِ ، غنّيني ... فقد سئمتُ وجومَ الـكونِ ، من حينِ
إن الليـالِي اللواتى ضمّخت كبـدى ... بالسّـحر أضحتْ مع الأيام ترميني
ناختْ بنفسى مآسيها ، وما وجدتْ ... قلبًا عطوفًا يُـــسـلّيها ، فعزّيني
وهدّ من خلَدى نوْحٌ ، ترجّعه ... بَلْوى الحياة ، وأحزانُ المساكين
هلى الحياة أنا أبكى لشـــقوتها ... فمن إذا متُّ يبكيها ويبكينى ؟
يا ربة الشّعرِ ، غنّيني ، فقد ضجرت ... نفسى من الناس أبناء الشياطين
تبرّمت ببنى الدنيـا ، وأعوزها ... فى معزف الدهر غرّيد الأرانين
وراحةُ الليْـلِ ملْأى من مدامعه ... وغادة الحب ثـكلى ، لا تغنّينى
فهل إذا لُذْت بالظلماء ، منتحبًا ... أسلو ؟ وما نَفْعُ محزون لمحزون ؟
يا ربة الشـعر ! إنى بائسٌ ، تعسٌ ... عدِمتُ ما أرتجى فى العالَم الدون
وفى يديْكِ مزامـــيرٌ يخالجهـا ... وحى السما ؛ فهاتيها ، وغنينى
ورتّـلى حوْلَ بيت الحزن أغنيةً ... تجلُو عن النفس أحزانَ الأحايين
فإن قلبىَ قبرٌ ، مظلمٌ ، قُبِرتْ ... فيه الأمانى ، فما عادت تناغينى
لولاكِ فى هذه الدنيا لما لمستْ ... أوتارَ روحىَ أصـواتُ الأفانين
ولا تغنّيْتُ مأخوذًا . . ، ولا عذُبتْ ... لىَ الحيـاةُ لدى غضّ الرياحين
ولا أصخْتُ إلى الأصداء ، راقصةً ... بين الـكهوف ، على عزف الشياطين
ولا ازدهى النفسَ فى أشجانها شفقٌ ... يُلوّنُ الغـيْمَ لهـوًا أىَّ تلوين
ولا استخفّ حيـاتى ، وهى هائمةٌ ... فجْرُ الهوى فى جُفون الخُرّدِ العِينِ

فى فجاج الآلام

يا لابتسامة قلبٍ مطولةٍ بدموعهْ
غاضت ، فلم تبق إلاَّ الدموع بين صدوعهْ
فظلَّ يهتف من شجوِ هِ ، وفرْطَ وُلُوعِهْ
« ويْح الحياة ! أما تنقضى لديها الرزايا ؟ ! »
« أما يُكَفْكِفُ هذا الزمانُ صوْبَ البلايا ؟ ! »
« يا دهرُ ! رفقا ! فإن القلوب أمست شظايا »

* * *

يا قلب نهنهْ دموعَ الأسى ، ولوْعة رُوعِكْ
إن الدهور البواكى غنيَّةٌ عن دموعِكْ
حسْبُ الحياة أساها فاطْوِ الأسى فى صدوعِكْ
واحلم بفجر الليالى . . ، ففجرُها فى هجوعِكْ
وإن غفَوْتَ فإنَّ الحيـــاة ليست تروعُكْ
وسوف يمضى شتاء الأسى ، ويأتى ربيعُكْ

* * *

بين القبـــور فتاةٌ جارَ الزمانُ عليها
فافتكَّ منها بعنفٍ كفُّ الردى أبويها

تقول والليـــل ساجٍ والقبرُ مصغٍ إليها :

« يا ليتنى متُّ من قبل أن تســـوء حياتى »

« ويَنضبَ الدمع من لوْعِتى ، ومن حسراتى ! »

« مَنْ لى بحُفرة قـــبر تضمُّنى وشكلتى ! »

* * *

فى الحىِّ صبٌّ يعانى فى الصـدر داءً دفينا

وفى الفؤاد جوًى كا منًا وحبًّا مكينا

حتى دهتْه الليالى وجرَّعَتْهُ مَنُـونَهْ

فشيَّعَ الميْتَ جمعٌ من حيِّه ، يندبونَهْ

حتى إذا ما أرادوا رصْفَ الصفائح دونَهْ

ناحت عليه فتـاة : «ويلى! لمن تتركونه ؟»

* * *

كان الصبىُّ يصيد الفراش بين الزهـــور

فدَاسَ زَهـرا نديًّا ألقى به فى الغـدير

فأخرجوه ، ولـكن بعد القضاء الأخير...

فخرَّت الأم حول الصبىِّ ، تصرخ : « ويلى ! »

فقلت ، والقلب دامٍ والناس يبكون حولى:

« ما أسخف العيش تقضى عليه زلَّةُ نعْلِ ! »

* * *

شيخٌ ، كما شاء دهر الأسى ، وحيدٌ شقيتُ
بين الخرائب يُمسِى على الطَّوى ، ويبيتُ
فى ظلمة الليـل فاضت على الوجود حيـاتُهْ
وطرفُه يرمُق النَّجمَ مِـلْؤُهُ عـــبراتُهْ
وما حواليه إلاَّ الخـــرابُ يُشجِى صُماتُهْ
فما بـكاه فتـــاه ولا بكـته فتـاتُهْ

* * *

يا زهـــرةً سَامَها العابرون خسفًا وهُونَا !
لو كنتِ شوكًا عَضوضًا ما داسكِ العابرونا
لأنَّهم يجهلون الوحىَ الذى تُضْمرينـا
هم يسخرون بهمس الزهـور ، وهو بديعُ !
ويُنصتون لصوت الأشواك ، وهو مُريعُ !
فلا تبـــالى بقوم الحق فيهم صريعُ

* * *

ربَّاه ! كم من فتاة ، تشكو الحياة وتبكى ،
ومُعْدِم ، بَوَّأتْهُ الدُّهـــورُ مقعدَ ضنْكِ
ويائسٍ مات فى لُبِّـه المرام الوحيـــدُ
وتائهٍ ، ضاع بين القفار ، وهو فريـــدُ

حتى طوته من العاصفاتِ ريحٌ شَرُودُ
ربّاه ! رُحماكَ إن الزّمان فضٌّ شـديدُ

* * *

يا طائر الشـعر ! رَوِّحْ على الحياة الـكئيبَهْ
وامسحْ بريشكَ دمْعَ القلوبِ ، فهى غريبَهْ
وعزِّها عن أسـاها فقد دهتها المصـيبه
وأنتَ روحٌ جميل ، بين الهضـاب الجديبهْ
فانفخْ بها من لهيب السماء رُوحًا خضيبهْ
وابعث بسـحركَ فى قلبها ضرامَ الشبيبهْ

جَدْوَلُ الحُبّ

بين الأمس واليوم

بالأمس قد كانت حياتى كالسماء الباسمهْ
واليومَ ، قد أمستْ كأعماق الكهوف الواجمهْ
قد كان لى ما بين أحلامى الجميلةِ جدولُ
يجرى به ماء المحَبَّة طاهراً ، يتسلسلُ
تسعى به الأمواجُ باسمةً كأحلام الصِّبا
بيضاء ، ناصعةً ، ضحوكاً مثل أزهار الربى
ميَّاسةً كعرائس الفردوس بين حُقولهِ
تتلو أناشيد المُنى فى مَدِّه ، وقُفولهِ

* * *

هُوَ جَدْوَلُ الحب الذى قد كان فى قلبى الخضِلْ
بمراشف الأحلام منطلقاً ، يسير على مَهَلْ
يتلو على سمعى أغاريدَ الحياة الطاهرهْ
ويُثير فى قلبى أناشيدَ الخلود الساحرهْ
تقف العذارى الخالداتُ . . . عرائسُ الشعرِ البديع
فى ضفتَيْه ، مُردِّداتِ نغمةَ الحلم الوديعْ

يلمسن من قيثارة الأحلام أوتار الغزل
فتفيض ألحانُ الصبابة عذبةً ، مثل الأمل
وتطير بالبَسَمات والأنغام أجنحةُ الصدى
فى ذلك الأفُق الجميـل ، وذلك النَّسَم الرُّخا
وهناك حيث تُعانق البسماتُ أنغامَ الغزل
يتمايل الحلمُ الجميل . . . كبسمة القلب الثَّمِل

* * *

هُوَ جدولٌ ، قد فجَّرتْ يَنبـوعَه فى مهجتى
أجفانُ فاتنةٍ أرتنيها الحياة ، لشـقوتى
أجفان فاتنة ، تراءتْ لى على فجر الشـباب
كعروسة من غانيات الشعر ، فى شَفَق السحاب
ثم اختفت خلف السماء ، وراء هاتيك الغيومْ
حيث العذارى الخالداتُ ، يمسْنَ ما بين النجوم
ثم اختفت ، أوَّاه ! طائرةً بأجنحة المنون
نحو السماء ، وها أنا فى الأرض تمثال الشجون
قد كان ذلك كله بالأمس ! بالأمس البعيد . . .
والأمس قد جرفته مقهوراً يدُ الموت العتيد
قد كان ذلك تحت ظل الأمس ، والماضى الجميل
قد كان ذلك فى شعاع البدر من قبل الأفول

واليوم إذ زالت ظلال الأمس عن زَهَرى البديع
وتجَلْبَبَ الزهرُ الجميلُ بظُلمة الليل المريع
ذبلت مراشفُه ، فأصبح ذاوياً ، نضو الكلوم
وهوى لأنَّ الليل أسمعه أناشيد الوجوم . . .

* * *

بالأمس قد كانت حياتى كالسماء الباسمهْ
واليوم قد أمست كأعماق الكهوف الواجمهْ

* * *

إذْ أصبح النبع الجميل يسير فى وادى الأمْ
متعثِّرًا بين الصخور ، يغور فى تلك الظُّلَمْ
جَفَّتْ به أمواجُ ذيَّاك الغرام الآفل
فتدفَّقتْ فيه الدموعُ بصَوبها المتهاطل
قد حجَّبته غيوم أحزان الوجود القاتمهْ
قد أخرسته مرارةُ القلب التعيس الظالمه
جَمَدتْ على شفتيه انغام الصبابة والهوى
وقضتْ أغانى الحب ، فى أعماقه ، لما هوى
وغدت به الأمواجُ ، جامدةَ الملامح ، قاتمه
قد أسكَتَتْها لوعة الرُّوح الحزين ، الواجمهْ
غاضت أمانيها ، وغار بها الجمال الساحر

فأصابها — لَهَفًا عليه — الإكتئابُ الكافرُ
في ضفتَيْه عرائسُ الأشعار تنصب مأتما
يُهرقن فيه الدمعَ ، حتى يلطم الدمعُ الدما
فيسيل ذاك المدمعُ الدَّامي لقلب الجدول
حيث المرارةُ ، والأسى ، بين الزهور الذُّبَّل
ويُنحن حتى يُفعم الآفاقَ صوتُ الإنتحاب
فتسير أصداء النياحة نحو أطباق الضَّباب
وهناك ما بين الضباب الأقتم الساجي الكئيبْ
تهتزُّ آلامي ، وتختاج الكآبةُ ، بالنحيب

يارفيقى

يارفيقى ! وأين أنتَ ؟ فقد أعمت جفونى عواصف الأيام ورمتنى بمهمهٍ ، قاتمٍ ، قفرٍ ، تُغَشّيه داجياتُ الغمام . . خُذْ بكفّى ، وغنّنى ، يارفيقى ، فسبيل الحياة وعرٌ أمامى كلّما سِرْتُ زلّ بى فيه مهوى ، تتضاغى به وحوشُ الحِمام شعّبته الدهور ، وانطمسَ النُّور ، وقامتْ به بنات الظلام راقصاتٍ ، يُجلِبْنَ فى حلكِ الليل ، ويلعبن بالقلوب الدوامى غنّنى ، فالغِنآء يَدْرَأُ عنّا ساحِرَ الجنّ .. ، ساكنَ الآجام ..

* * *

قد تفكّرتُ فى الوجود ، فأعيانى ، وأدبرتُ آيِسًا لظلامى أنشُدُ الرّاحَةَ البعيدةَ ، لكن خاب ظنّى وأخطأت أحلامى فمعى فى جوانحى أبَدَ الدهر فؤادٌ إلى الحقيقة ظامى ما تراخى الزّمانُ إلاّ وألقى فى طواياه قَبْضَةً من ضَرام تتلظّى ، يدَ الحياة ، وزادتْ مُعضلاتُ الدُّهور والأعوام أظمأتْ مهجتى الحياةُ ، فهل يومًا تُبِلُّ الحياة بعض أُوامى ؟ يارفيقى ! ما أحسِبُ المنبعَ المنشودَ إلاّ ورآءَ ليلِ الرِّجام

غنّني ، يا أُخَيَّ ، فالكونُ تيهاء ، بها قد تمزّقت أقدامي
غنّني ، علّني أُنيمُ همومي ، إنّني قد مللت من تهيامي

* * *

يارفيقي ! أما تفكّرْتَ في الناس ، وما يحملون من آلام ؟
فلقدْ حزّ في فؤادي ما يَلْقَوْن من صولة الأسى الظلّام
فإذا سرّني من الفجر نورٌ ساءني ما يُسِرُّ قلبُ الظّلام
كم بقلب الظلام من أنّةٍ تهفو بغُصات صِبْيَةٍ أيتام
ونشيجٍ مُضَرَّمٍ من فتاةٍ ، أبهظتْها قوارعُ الأيام
ونُوَاحٍ يفيضُ من قلب أُمٍّ فُجعتْ في وحيدها البسام ،
فطَمَ الموتُ طفلَها ، وهو نورٌ في دجاها ، من قبل عهد الفطام
وأنينٍ من معدم ، ذي سقام ، عضّهُ الدهر بالخطوب الجسام
ما إخال النُّجوم إلاّ دموعًا ، ذرَفَتْها محاجر الأعوام
فلقد ضرّم الشجونَ بنوها ، فاذا بالشُّجون سيلٌ طام
وإذا بالحياة في ملعب الدهر تدوس الرؤوس بالأقدام
وإذا الكون فلذةٌ من جحيمٍ ، تتغذّى بكل قلبٍ دامِ
وهُمُ في جحيمهمْ يتناغَوْن بما في الوجود من أنغام !
عجبًا للنفوس ، وهي بوالٍ ، عجبًا للقلوب ، وهي دوام
كيف تشدو وفي محاجرها الدمع ، وتلهو مابينَ سُودِ الموامي ؟!

* * *

يارفيق ! لقد ضللتُ طريقى ، وتخطَّتْ مَحَجَّتِى أقدامى
خذ بكفى ، فإننى تائهٌ ، أعمى ، كثير الضلال والأوهام
وانفخ النَّاىَ ، فالحياة ظلامٌ ، ما لمرتاده من الهول حام
مِلء آفاقه فحيحُ الأفاعى ، وعجيجُ الآثام والآلام
فانفخ النَّاىَ ، إنه هِبَةُ الأملاك للمستعيذ بالإلهام
واغذُذِ السَّيْرَ ، فالنهارُ بعيدٌ ، وسبيلُ الحياة جمٌّ الظلام ...

إلى الموت

صبيَّ الحياة ، الشقيَّ العنيدْ ألا قد ضللتَ الضلال البعيدْ !
أتُنشدُ صوتَ الحياة الرخيمَ ، وأنت سجينٌ بهذا الوجودْ ؟ !
وتطلب وَرْدَ الصباح المخضَّب من كفِّ حقلٍ ، جديبٍ ، حصيدْ ؟!
إلى الموت ! إنْ شئتَ هَوْنَ الحياة ، فخلف ظلام الردى ما تريد ..

* * *

إلى الموت ! يا ابن الحياة التعيسَ ، ففي الموت صوتُ الحياة الرخيم
إلى الموت ؟ إن عذَّبتكَ الدهور ، ففي الموت قلبُ الدهور الرحيم
إلى الموت ! فالموت رُوحٌ جميلٌ ، يرفرف من فوق تلك الغيوم
رَوحًا بفجر الخلود البهيج ، وما حوله من بنات النجوم . . .

* * *

لى الموت ! فالموت جامُ رويٍّ لمن أظمأته سَـــمُومُ الفلاة
لستَ براوٍ — إذا ما ظمئتَ — من المنبع العذب قبل الممات
ا الدمع إلا شراب الدهـــور ، وما الحزن إلا غذاء الحياة
لى الموت ! فالموت مَهْدٌ وثـير ، تنام بأحضانه الـكائنات

* * *

إلى الموت ! إن حاصرتكَ الخطوبُ ، وسدَّتْ عليكَ سبيلَ السلامْ
ففى عالم الموت تنضو الحياةُ ردآءَ الأسى ، وقناعَ الظـــلام
وتبدو ، كما خُلِقَتْ ، غضَّةً يفيض على وجهها الابتســـام
تعيدُ عليها ظِلَال الخـــلود ، وتهفو عليها قـــلوبُ الأنام

* * *

إلى الموت ! لا تخش أعمـــاقه ، ففيها ضيآء السماء الوديع
وفيها تميس عـذارى السماء ، عوارىَ ، ينشـدن لحنًا بديع ...
وفى راحهنَّ غصونُ النخيـــل يحرِّكْنها فى فضآء يضوع ...
تضئ به بسمات القـــلوب ، وتخبو به حسرات الدمـوع

* * *

هو الموت طيفُ الخـلودِ الجميلُ ، ونصف الحياة الذى لاينوحْ
هنالكَ . . ، خلف الفضآء البعيد ، يعيش المنونُ القوىُّ الصَّبُوحْ
يضمُّ القلوب إلى صـــدره ، ليأسوَ ما مضَّها من جـروح
ويبعثَ فيها ربيعَ الحيـاة ، ويبهجَها بالصباح الفَروح

إلى عارفٍ أعمى

أدركتَ فجرَ الحياة أعمى ... وكنتَ لا تعرف الظلامْ
فأطبقت حولك الدَّياجى ... وغام من فوقك الغمام
وعشتَ فى وحشة ، تقاسى ... خواطرًا ، كلها ضرام
وغربةٍ ، ما بها رفيق ... وظلمةٍ ، ما لها ختام
تشقُّ تِيهَ الوجودِ فردًا ... قد عضَّك الفقر والسقام
وطاردت نفسك المآسى ... وفرَّ من قلبك السلام

* * *

هوِّن على قلبك المعنَّى ... إن كنت لا تبصر النجومْ
ولا ترى الغابَ ، وهو يلغو ... وفوقه تخطر الغيوم
ولا ترى الجدولَ المغنِّى ... وحوله يرقص الغميم
فكلُّنا بائس ، جدير ... برأفة الخالق العظيم
وكلُّنا فى الحياة أعمى ... يسوقه زعزعٌ عقيم
وحوله تزعق المنايا ... كأنها جِنَّة الجحيم :

* * *

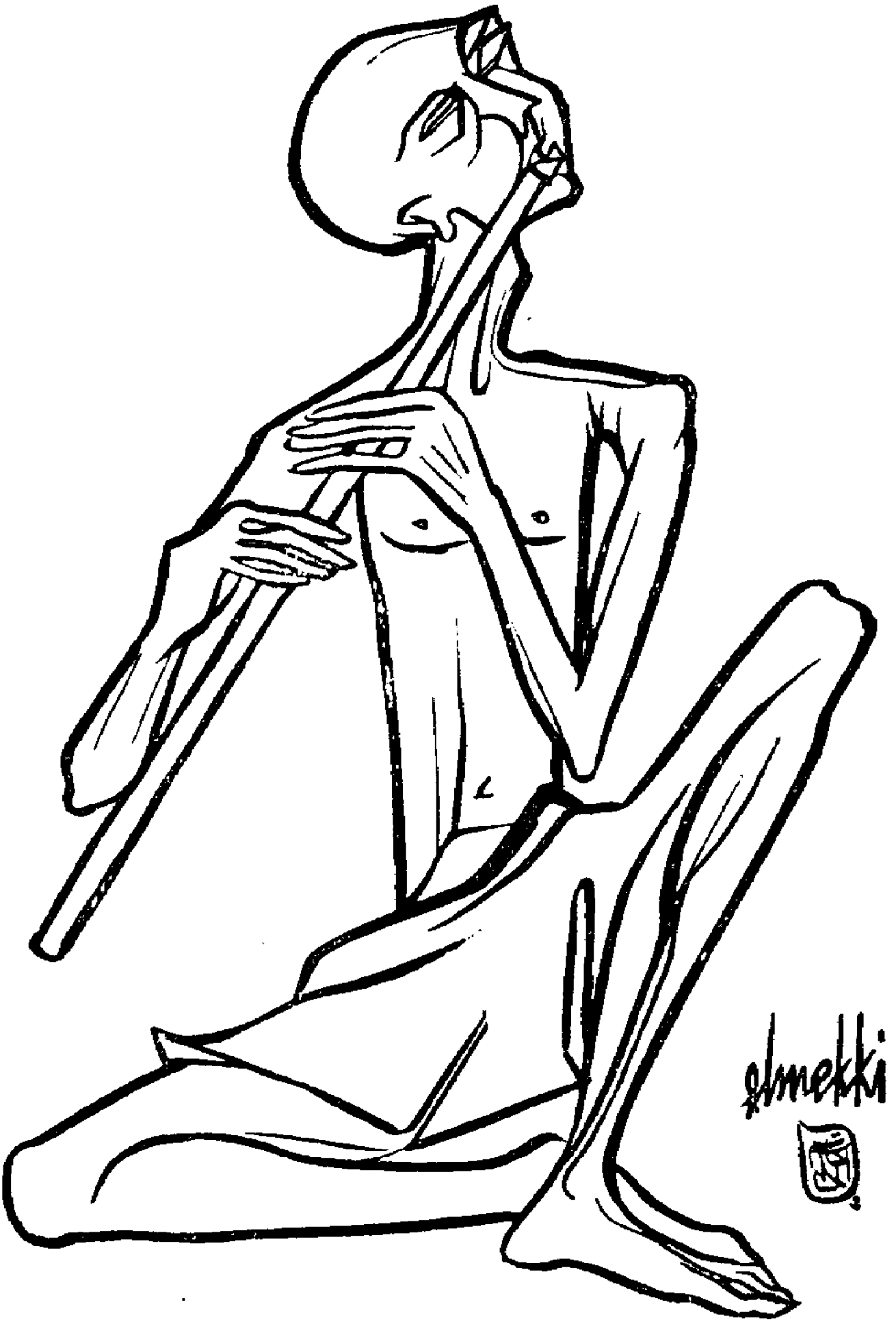
Ilmekki

يا صاح ! إن الحياة قفـرٌ مروِّعٌ ، ماؤه سرابْ
لا يجتنى الطَّرْفُ منه إلاّ عواصفَ الشـوك والتراب
وأسـعد الناس فيه أعمى لا يبصر الهول والمصـاب
ولا يرى أنفسَ الـبرايا تذوب فى وقْدة العـذاب
فاحمد إلٰهَ الحياة ، واقنعْ فيها بألحـانكَ العِـذاب
وعِشْ ، كما شاءت الليالى من آهـة النَّاى والرَّباب

صَوْتٌ تائِهٌ

قضَّيتُ أدوارَ الحياة ، مفكِّرًا فى الكائنات ، معذَّبا ، مهمومَا
فوجدتُ أعراسُ الوجود مآتمًا ووجدت فردوسَ الزمان جحيماَ
تدوى مخارمه بضجَّة صرصرٍ ، مشبوبة ، تَذَرُ الجبال هشيما
وحضرتُ مائدةَ الحياة ، فلم أجد إلاَّ شراباً ، آجنًا ، مسموما
ونفضتُ أعماق الفضاء ، فلم أجد إلا سكوناً ، مُتْعَبًا محموما
تتبخَّرُ الأعمار فى جَنَبَاتِه وتموتُ أشواقُ النفوس وُجوما
ولمست أوتار الدهور ، فلم تَفِضْ إلاَّ أنينًا ، داميًا ، مكلوما
يتلو أقاصيص التعاسة والأسى ويصيرُ أفراح الحياة هموما

* * *

شُرِّدْتُ عن وطَنِي السماوىِّ الذى ما كان يومًا واجمًا ، مغموما
شُرِّدْتُ عن وطنى الجميل . . ، أنا الشقىّ ، فعشت مشطورَ الفؤاد ، يتيما . . .
فى غُربةٍ ، روحيَّةٍ ، ملعونةٍ أشواقُها تقضى ، عِطاشًا ، هِيما . . .
يا غربةَ الرُّوحِ المفكِّرِ ! إنه فى الناس يحيا ، سائمًا ، مسئوما
شُرِّدتُ للدنيا . . ، وكلُّ تائهٌ فيها يُروِّعُ راحـــلاً ومقيما

يدعو الحياة ، فلا يُجيبُ سوى الرَّدى ليدُسَّـــه تحت التراب رميما

وتظل سائرةً ، كأنَّ فقيدها ما كان يومًا صاحبًا وحميما !

* * *

يا أيُّها السارى ! لقد طال السُّرى حتّامَ ترقب فى الظلام نجوما . . ؟

أتخالُ فى الوادى البعيدِ المُرْتَجى ؟ هيهات ! لن تلقى هناك مَرُوما

سِرْ ما استطعت ، فسوف تُلْفِى — مثلما

خلَّفتَ — تَمْشـوقَ الغصون حطيما

نشيد الأسى

يا ليت شعرى ! هل لليل النفس من صبح قريب ؟
فتقرَّ عاصفةُ الظلام ، ويهجعَ الرَّعدُ الغضوب
ويرتِّلَ الإنسانُ أغنيةً مع الدنيا ، طروب

* * *

ما للرياح تهبُّ فى الدنيا ، ويدركها اللُّغوب
إلاَّ رياحى ، فهىَ جامحةٌ ، تمرُّدُها عصيب ؟
مالى تعذِّبنى الحياةُ كأنَّنى خَلْقٌ غريب ؟
وتهُدُّ من قلبى الجميل ؟ فهل لقلبى من ذنوب ؟
وإذا سألتُ : « لِمَ الوجود ، وكلُّه همٌّ مذيب ؟ »
قالت : « نواميسُ السماء قضتْ ، ومالك من هروب ؟ »
آهٍ على قلبى ! وإن شقيتْ كشقوته قلوب
أنقى من الموج الوضىء ، ومن نشيد العندليب
لم تقترفْ إثمَ الحياة ، وكان مأواها اللهيب

* * *

يا مهجةَ الغاب الجميلِ ألمْ يصدِّعْكِ النحيب ؟
يا وجنةَ الورد الأنيقِ ألمْ تشوِّهكِ النُّدوب ؟

يا جدولَ الوادى الطروبَ ألم يرنِّقْكَ القطـوب ؟
يا غيْمةَ الأُفق الخضيب ألمْ تمزِّقكِ الخطوب ؟
يا كوكبَ الشفقِ الضحوكَ أما ألَمَّ بك الشحوب ؟
ها أنت ذا فى الأفق تضحكُ ، لا تهمُّ ، ولا تخيب
تُلقِى على قُنَن الجبـــال رداء لألاء قشيب
لتنامَ أورادُ الجبـال الشمِّ ، فى مَهْدٍ عجيب
ولـكى تغنيكَ الجداولُ لحنَها العـــذبَ الحبيب
وترى جمالك من بنات الغاب مِعطارٌ ، لَعوب
معشـوقةٌ ، فى فرعها تاجٌ من الورد الخضيب
تتلو أناشيدَ الربيع ، كأنها نجوى القـــلوب
يا كوكبَ الشفق الضحوك ! وأنت مُبْتَهَلُ الكئيب
لُحْ فى السماء ! وغنِّ أبناء الشقاوة والخطوب
أنشـــودةً تَهَبُ العزاءَ لـكل مُبتئسٍ غريب
فالطير قد أغفتْ ، وأسكتَ صـوتَها الليـلُ الهيوب
وابسطْ جناحكَ فى الوجود ، فإنه عذبٌ ، خَلُوب
متألِّقٌ بين النجـــوم ، كأنه حلم طروب
وانشُرْ ضياءكَ ساطعًا ، لِيُنيرَ أعماق القـلوب
فعـــلى جوانبها من الأحزان دَيْجورٌ رهيب

* * *

ما للحياةِ نقيـــةٌ حولِي ، ويَنبوعِي مَشُوب ؟
ما للصباح يعـــود للدنيا ، وصُبْحِي لا يؤوب ؟
ما لى يضيقُ بىَ الوجود ، وكلُّ ما حولى رحيب ؟
ما لى وَجِمْتُ ، وكلُّ ما فى الغاب مغترد طروب ؟
ما لى شقِيتُ ، وكلُّ ما فى الـكون أخّاذٌ عجيب ؟
فى الأرض أقدام الربيع تلامس السهل الجديب
فإذا به يحيا ، وينبت رائق الزهـــر الرطيب
وهناك أنوار النهار تُطلُّ من خلف الغـــروب
فتخضّب الأمواج ، والآفاق ، والجبـــل الخصيب
إن الوجودَ الرحْبَ ، والغاباتِ ، والأفُقَ الخضيب
لمْ تخبُ أشواق الحياة بها ، فغادرها القطوب
أما أنا ففقدتها ، والليـــل مربدٌّ ، رهيب
والرِّيحُ تعصف بالورود . . ، فعشتُ سخريةَ الخطوب . . .

* * *

مهما تضاحكت الحيـــاة فإننى أبداً كئيب
أصـــغى لأوجاع الـكآبة ، والـكآبة لا تجيب
فى مهجتى تتأوّهُ البـــلوى ، ويعتلج النّحيب
ويضجُّ جبّـــارُ الأسى ، وتجيش أمواج الـكروب
إنى أنا الرُّوحُ الذى سيظل فى الدنيـــا غريب
ويعيش مضـــطلعاً بأحزان الشبيبة والمشيب

قلت للشعر

أنتَ ياشعر ، فلذةٌ من فؤادى تتغنَّى ، وقطعةٌ من وجودى
فيكَ ما فى جوانحى من حَنِينٍ أبديٍّ إلى صميم الوجـــود
فيك ما فى خواطرى من بكاء فيك ما فى عواطفى من نشيد
فيك ما فى مشاعرى من وُجومٍ لا يغنِّى ، ومن سرور عهيد
فيك ما فى عوالمى من ظلامٍ سرمدى ، ومن صباحٍ وليد
فيك ما فى عوالمى من نجوم ضاحكات خلف الغمَام الشرود
فيك ما فى عوالمى من ضباب وسراب ، ويقظـة ، وهجود
فيك ما فى طفولتى من سلامٍ ، وابتسامٍ ، وغبطة ، وسعود
فيك ما فى شبيبتى من حنينٍ ، وشجون ، وبهجة ، وجمود
فيك — إن عانق الربيع فؤادى — تتثنَّى ســـنابلى وورودى
ويغنَّى الصباحُ أنشودة الحب ، على مسمع الشباب السعيد
ثم أجنى فى صيْف أحلامىَ الساحر ما لذَّ من ثمار الخلود
فيك يبدو خريف نفسى مَلُولاً ، شاحبَ اللون ، عارىَ الأملود
جلَّلته الحيـاةُ بالحـزَن الدَّا مى وغشَّتْه بالغيوم الســود
فيك يمشى شتاء أيَّامىَ البا كى ، وتُرغى صواعقى ورعودى
وتجفُّ الزهـور فى قلبىَ الدا جى ، وتهوى إلى قرار بعيد ...

أنت ياشعر قصة عن حياتى أنت ياشعر صورة من وجودى
أنت ياشعر — ان فرحتُ — أغاريدى — وإن غنَّت الكآبة — عودى
أنت ياشعر كأسُ خمرٍ عجيبٍ أتلهَّى به خلال الملحود . . !
أنحسَّاه فى الصباح ، لأنسى ما تقضَّى فى أمسىَ المفقـــود
وأناجيه فى المساء ، ليُهدِينىَ مَرْآهُ عن ظـــلام الوجود
أنا لولاك لم أطق عنتَ الدَّهر ، ولا فُرْقة الصباح الســـعيد
أنت ما نِلتُ من كهوف الليالى وتصفَّحتُ من كتاب الخلود
فيك مافى الوجود من حَلَكٍ ، داجٍ ، وما فيه من ضياء ، بعيد
فيك ما فى الوجود من نَغَمٍ ، حلوٍ ، وما فيه من ضجيج ، شديد
فيك ما فى الوجود من جبل ، وعْرٍ ، وما فيه من حضيضٍ ، وهِيد
فيك ما فى الوجود من حسكٍ ، يُدْمِى ، وما فيه من غضيضِ الورود
فيك ما فى الوجود . . ، حبَّ بنو الأرض قصيدى ، أم لم يُحبُّوا قصيدى
فســـواء على الطيور — إذا غنَّتْ — هُتافُ السَّؤوم والمستعيد
وسواء على النجوم — إذا لاحت — سكونُ الدجى وقصفُ الرعود
وسواء على النسيم ، أفى القفـــر تغنَّى ، أمْ بين غضِّ الورود
وسواء على الورود ، أفى الغيران فاحتْ ، أم بين نهدٍ وجيد

يا ابنَ أمي

خُلقتَ طليقًا كطيف النسيم ، وحرًّا كنور الضحى فى سماهْ
تغرِّد كالطير أيْن اندفعتَ ، وتشدو بما شاء وحيُ الإله
وتمرحُ بين ورود الصباح ، وتنعم بالنور ، أنّى تراه
وتمشى — كما شئتَ — بين المروج ، وتقطف ورد الرُّبا فى رُباه

* * *

كذا صاغكَ الله ، يا ابن الوجود ، وألقتك فى الكون هذى الحياه
فما لك ترضى بذل القيود ، وتَحنى لمن كبَّلوك الجباه ؟
وتُسكتُ فى النفس صوت الحياة القوىّ إذا ما تغنّى صداه ؟
وتطبق أجفانك النيِّرات عن الفجر ، والفجرُ عذبٌ ضياه ؟
وتقنع بالعيش بين الكهوف ، فأين النشيد ؟ وأين الإياه ؟
أتخشى نشيد السماء الجميل ؟ أترهب نور الفضا فى ضحاه ؟
ألا انهضْ ، وسر فى سبيل الحياة ، فمن نام لم تَنْتَظِرْهُ الحياه ؟
ولا تخشَ مما وراء التلاع . . . فما ثَمَّ إلا الضحى فى صباه . . .
وإلا ربيعُ الوجود الغريرُ ، يطرِّزُ بالوردِ ضافِى رداه . . .
وإلا أريجُ الزهور الصَّباحِ ، ورقْصُ الأشعَّةِ بينَ المياه . . .
وإلا حَمامُ المروج الأنيقُ ، يغرِّدُ ، منطلقا فى غناه . . .
إلى النّور ! فالنور عذبٌ جميلٌ ، إلى النور ! فالنور ظِلُّ الإله

أغاني التائه

كان فى قلبِيَ فجرٌ ، ونجومْ ، وبحارٌ ، لا تُغَشِّيها الغيومْ
وأناشيدٌ ، وأطيارٌ تحومْ وربيعٌ ، مُشْرِقٌ ، حلوٌ ، جميلْ
كان فى قلبى صباحٌ ، وإباءْ ، وابتساماتٌ ، ولكن ... واأساه !
آه ! ما أهولَ إعصارَ الحياهْ ! آه ! ما أشقى قلوب الناس ! آه !

كان فى قلبىَ فجرٌ ، ونجومْ ،
فإذا الكلُّ ظلام ، وسديم . . ،
كان فى قلبىَ فجرٌ ، ونجومْ

* * *

يا بنى أمِّى ! تُرى أين الصباح ؟ قد تقضَّى العُمْرُ ، والفجْرُ بعيدْ
وطغى الوادى بثوبِ النُّواحْ وانقضتْ أنشودة الفصْل السعيد
أين نايى ؟ هل ترامتْه الرياح ؟ أين غابى ؟ أين محراب السجود ..؟
خبِّروا قلبى — فما أقسى الجراح ! — كيف طارتْ نشوةُ العيش الحميد ؟

يا بنى أمِّى ! تُرى أين الصباح ؟
أوراء البحر ؟ أم خلف الوجود ؟
يا بنى أمى ! ترى أين الصباح ؟

* * *

ليت شعرى ! هل ستسلينى الغداةْ وتُعزِّينى عن الأمس الفقيـد
وتُرينى أن أفراح الحياة زُمَرٌ تمضى ، وأفواجٌ تعود
فإذا قلبى صياح ، وإياه . . ، وإذا أحلامىَ الأولى ورود . . ،
وإذا الشَّحرور حلو النَّغمات . . ، وإذا الغاب ضياء ، ونشيد . . ؟

ليت شعرى ! هل ستسلينى الغداة
أم ستنسانى ، وتبقينى وحيد ؟
ليت شعرى ! هل تعزِّينى الغداة ؟

إلى قلبيَ التائه

ما لآفاقك يا قلبيَ سودًا ، حالكاتْ ؟
ولأورادكَ بين الشوك صفرًا ، ذاويات ؟
ولأطيارك لا تلغو ؟ فأين الغنوات ؟
ما لمزمارك لا يشدو بغير الشهقات ؟
ولأوتارك لا تخفق إلا شاكيات
ولأنغـــامك لا تنطق إلا باكيات
ولقد كانت صباحَ الأمس بين النسمات
كعذارى الغاب ، لا تعرف غير البسمات ؟
هوذا يا قلبيَ البحر ، وأمواج الحياة !
هوذا القارب مشدودًا إلى تلك الصفاة !
هوذا الشاطئُ ! لكن أين رُبَّانُكَ ؟ مات !
أين أحلامك يا قلبي ؟ لقد فاتَ الفوات !
تلك أطيارٌ ، أنيقاتٌ ، طرابٌ ، فرحات
غرَّدتْ ، ثم توارتْ في غيابات الحياة

* * *

أنت يا قلبيَ قلبٌ ، أنضجته الزفرات
أنت يا قلبيَ عشٌّ ، نفرت عنه القطاة

فأطارته إلى النهـــــر الرياحُ العاتيات

فهو فى التيَّـــار أوراق ، وأعواد عراة

أنت حقلٌ ، مُجْدبٌ ، قد هزئت منه الرعاة

أنت ليلٌ ، مُعْتِمٌ ، تندب فيه الباكيات

أنت كهف ، مظلمٌ ، تأوى إليه البائسات

أنت صَرْحٌ ، شاده الحب على نهر الحياة

لبنات الشعر . . ، لـكن قوَّضته الحادثات

أنت قبرٌ ، فيه من أيامِيَ الأولى رُفات

أنت عودٌ ، مزَّقتْ أوتارَه كفُّ الحياة

فهو فى وحشته الخرساء ، بين الكائنات

صامتٌ كالقبر ، إلا من أنينِ الذكريات

أنت لَحْنٌ ساحرٌ ، يخبط فى التِّيهِ المَوَات

أنت أنشودةُ فَجْرٍ . . ، رتَّلتْها الظلمات . . .

* * *

أيها الســارى مع الظلمة ، فى غير أناة

مُطرِقًا ، يخبطُ فى الصحراء ، مكبوحَ الشكاة

تهتَ فى الدنيا ، وما أبْتَ بغير الحسرات

صلِّ يا قلبى إلى الله ، فإنَّ الموت آت

صلِّ فالنَّازعُ لا تبقَى له غير الصـــلاة

أكرثت يا قلبى فماذا ترومْ ؟

يا قلبَ الدامى ! إلامَ الوجـــومْ ؟
يكفيك ! إن الحزن فظٌّ ، غشوم
هـذى كؤوسى مُرَّةٌ ، كالردى
ما مِلْؤُها إلا عصـــير الهموم
وذاك نايِي صـــامتٌ ، واجمٌ
يُصغى إلى صوت الغـــرام القديم
يا قلبَ البـــاكى ، إلام البُكَى ؟
ما فى فضـــاء الكون شىء يدوم
فانْثُرْ غُبارَ الحزن فوق المدى
واسمعْ إلى صـوت الشباب الرخيم
وانقُرْ على دفِّ الهـــوى لحنَه
وارقص مع النـــور الضحوك الوسيم
يا قلبَ الداحى ! إلام الوجـــوم ؟
إن لَمْ أَلُمْ قلبى فمَنْ ذا ألوم ؟
مالك لا تصـــغى لغير الأسى ؟
مالك لا ترْنُو لغـــير الكلوم ؟

ما لك قد أصبحتَ لا تصرفُ الأيامَ
إلاَّ فى شِعاب الجحـــيم ؟
أما ترى البلبـــل فى غابـه
يشـدو ، وفوق الغاب تخطو النجوم ؟
أما ترى الأسحار تبـدو بها الغابات
كالأحـلام — خلْفَ الســـديم
أما ترى الآمـــال فى سحرها ؟
أما ترى الليل يناغى النجـــوم ؟

* * *

يا قلبَ الداجى ! إلام الوجـوم ؟
أكثرتَ يا قلبِى ، فماذا تروم ؟
هل تحـــبُ الأيامَ فى زَحْفِها
ترثِى لمن قد هدَّمَتْهُ الرجـوم ؟
كلاَّ ! فإن الدهـــر يمضى ولا
يلوى على ما خلفه من كليم
والسيمُ لا يرثى لمن طمَّـــه
والســـيل لا يبكى لنوح الهشيم
والعاصف الجبَّار فى ســـخطه
لا يرحم الغصنَ ، الرشيقَ ، القويم
هذى هِىَ الدنيـــا ، فماذا الأسى
يا قلبَ الدامى ، وماذا الوجـوم ؟

يا موت

هى صرخة من صرخات نفسى المملوءة بالأحزان والذكريات ، وشظية من شظايا هذا القلب المحطم على صخور الحياة ، قلتها فى أيام الأسى التى تلت نكبتى بوفاة الوالد ، رحمه الله .

يا موتُ ! قد مزَّقتَ صدرى
وقصمْتَ بالأرزاء ظهـــرى
ورميْتَنى من حالقٍ ، وسخرتَ منِّى أىَّ سخر
فلبثتُ مرضوضَ الفؤاد ، أجرُّ أجنحتى بذُعْر . . .
وقسوْتَ إذ أبقيتَنى فى الكون أذْرَعُ كلَّ وعْر
وفجعتنى فيمن أحب ، ومن إليه أبُثُّ سرّى
وأعدُّه ، فجرى الجميلَ ، إذا أدلهمَّ علىَّ دهرى
وأعدُّه ، وَرْدِى ، ومزمارى ، وكاسات ، وخمرى
وأعده ، غابى ، ومحرابى ، وأغنيتى ، وفجرى . . .
ورزأتنى فى عمـــدتى ، ومشورتى فى كل أمر
وهدمتَ صرْحًا ، لا ألوذ بغيره ، وهتكت سترى
ففقدْتُ روحًا ، طاهراً ، شهماً ، يجيش بكل خير

وفقدتُ قلبًا ، همُّه أن يستوى فى الأفق بذرى
وفقدتُ كفًّا ، فى الحياة يصدُّ عنِّى كل شر
وفقدتُ وجهًا ، لا يُعَبِّسه سوى حزنى وضُرى
وفقدتُ نفسًا ، لا تَنِى عن صوْن أفراحى وبشرى
وفقدت رُكْنِى فى الحياة ، ورايَتى ، وعمادَ قصرى

* * *

يا موت ! قد مزَّقتَ صدرى
وقصمْتَ بالأرزاء ظهـرى
يا موت ! ماذا تبتغى منِّى وقد مزَّقتَ صـدرى ؟
ماذا تودُّ ، وأنت قد سوَّدتَ بالأحزان فكرى
وتركتنى فى الكائنات أنُّ ، منفرداً بإصْرى
وأجوبُ صحراء الحياة ، أقول : « أيْنَ تُراهُ قبرى ؟ »
ماذا تَوَدُّ من المعذَّب فى الوجود بغير وِزْر ؟
ماذا تَوَدُّ من الشقىِّ بعيشه ، النكِدِ ، المُضِر ؟
إن كنتَ تطلبنى فهاتِ الكأسَ ، أشربُها بصبر
أو كنتَ ترقبنى فهاتِ السَّهمَ ، أرشقه بنحرى
خذنى إليك ! فقد تبخَّرَ فى فضاء الهمِّ عُمرى . . .
وتهدَّلتْ أغصـانُ أيامى ، بلا ثَمَرٍ وزهْر
وتناثرتْ أوراق أحلامى على حسَك المرر . . .
خذنى إليكَ ! فقد ظمِئْتُ لكأسكَ ، الكدِرِ ، الأمرِّ . . .

خذنى فقد أصبحتُ أرقُبُ فى فضاكَ الجوْنِ فجرى
خذنى ، فما أشقى الذى يقضى الحياة بمثل أمرى . . .

* * *

يا موت ! قد مزَّقتَ صدرى
وقصمتَ بالأرزاء ظهرى
يا موت ! قد شاع الفؤاد ، وأقفرتْ عرصات صدرى
وغدوت أمشى مطرقا من طول ما أثقلت فكرى
يا موت ! نفسى ملَّت الدنيا ، فهل لم يأت دوْرى ؟

إلى الله

تعرض لقلب الإنسان الذى لا تنتهى أطواره أزمات نفسية ثائرة ، يعصف فيها الألم والقنوط بكل حقائق الحياة ، وتتزعزع معها كل قواعد الإيمان والحق والجمال ، فيشعر المرء كأنما انبت ما بينه وبين الكائنات من وشائج الرحم والقربى ، فأصبح غريبا فى هاته الدنيا الغريبة فى نفسه ، وكأنما الحياة فن من العبث المرعب الممل الذى لا يجدر بالعطف ولا بالبقاء . ولكن من رحمة الأقدار أنها حال عارضة لا تدوم إلا كما تدوم عاصفة البحر ، تكدر صفاءه ، وتحيل جماله إلى شناعة ، وأنغامه إلى عويل ، وانسجامه إلى فوضى ثم تمر العاصفة وتسكن ويرجع البحر إلى زرقته الصافية وألحانه المتزنة ، وجماله الساحر الأبدى — وتحت تأثير هاته الحالة النفسية الجامحة نظمت القصيد التالى ونفسى سكرى بأحزانها الدامية وآلامها المتشحة باللهيب .

يا إله الوجود ! هذى جراح فى فؤادى ، تشكو إليك الدواهى

هذه زفرةٌ يُصعِّدها الهمُّ إلى مسمع الفضاء الساهى

هذه مهجة الشقاء تناجيك فهل أنت سامع يا إلهى ؟

* * *

أنتَ أنزلتنى إلى ظلمة الأرض وقد كنتُ فى صباحٍ زاه
كالشعاع الجميل ، أسبَحُ فى الأفق وأصغى إلى خرير المياه
وأغنّى بين الينابيع للفجر وأشدو كالبلبل التيّاه
أنتَ أوصلتنى إلى سبل الدنيا وهذى كثيرة الاشتباه
ثم خلّفتنى وحيداً ، فريداً بين داعٍ من الرياح وناه
أنتَ أوقدتنى على لُجّة الحزن وجرّعتنى مرارة « آه ! »
أنتَ أنشأتنى غريبا بنفسى بين قومى ، فى نشوتى وانتباهى
أنت كرّهتنى الحياة وما فيها وحبّبتنى جُمودَ السّاهى
أنتَ جبّلتَ بين جنبىّ قلبًا سرمدىَّ الشّعور والانتباه
عبقرىَّ الأسى : تعذّبه الدنيا وتشجيه ساحرات الملاهى !
أنت عذّبتنى بدِقّةِ حسّى وتعقّبتنى بكل الدواهى
بالأسى ، بالسقام ، بالهم ، بالوحشة ، باليأس ، بالشقا المتناهى
بالمنايا تغتال أشهى أمانىّ وتُذرى محاجرى ، وشفاهى
فإذا من أحب حفنة تُرْب تافهٍ ، من ترائب وجباه
وإذا فتنةُ الحياة وسحرُ الكون ضَرْبٌ من الغمام الزاهى
يتلاشى فوق الخضم ، ويبقى اليمُّ — كالعهد ، مُزْبِدَ الأمواه . . .

* * *

يا إله الوجود ! مالك لا ترثى لحزن المعذّب الأوّاه ؟
قد تأوّهتُ فى سكون الليالى ثم أطبقتُ فى الصباح شفاهى

وتغزَّلتُ بالحياة ، وبالحبِّ ، وغنَّيتُ كالسعيد اللاهى
وزرعتُ الأحلام فى قلبىَ الدامى ، وحوَّطتها بكل انتباهى
ثم لما حصدت لم أجن إلاَّ الشوكَ ، ماذا تُرى فعلتُ ؟ إلٰهى !

* * *

يا رياحَ الوجود ! سيرى بعنفٍ وتغنَّىْ بصوتك الأوَّاه
وانفخينى من روحِك الفَخْم ما يُبْلِغُ صوْتِى آذَانَ هذا الإله
فهو يُصغِى إلى القوىِّ ، ولا يُصغِى لصوتٍ بين العواصف واه
وانثُرى الوردَ للثلوج بدَاداً واصعقى كلَّ بلبلٍ تيَّاه
فالوجود الشقىُّ غير جدير بالأغانى ، وبالجمال الزَّاهى
واسحقى الكائنات كوْناً بكوْنٍ ، قبلَ أن تنتهى أذلَّ تناه
فالإله العظيم لم يخلق الدنيا سوى للفناء تحت الدواهى

* * *

يا ضمير الوجود ! يا عالم الأرواح ! يا أيها الفضاء الساهى !
يا خضمَّ الحياةِ ، يزخر فى الآفاق ، فى الترب ، فى قرار المياه !
خبِّرونى ، هل للورى من إلٰهٍ ، راحمٍ — مثل زعمهم — أواه
يخلق الناسَ باسماً ، ويواسيهم ، ويرنو لهم بعَطفٍ إلٰهى
ويرى فى وجودهم روحَه السامِى ، وآيات فنِّه المتناهى !
إنى لم أجده فى هاته الدنيا ، فهل خلف أفقها من إله ؟ !

* * *

ما الذى قد أتيتَ يا قلبيَ الباكى ؟ ! . وماذا قد قلتِه يا شفاهى ؟ !
يا إلٰهى ! قد أنطق الهمُّ قلبى بالذى كان . . ، فاغتفر يا إلٰهى !
قَدَمُ اليأسِ والكآبةِ داستْ قلبيَ المُتْعَبَ ، الغريبَ ، الواهى
فتشظَّى ، وتلك بعضُ شظاياه . . ، فسامحْ قنوطَه المتناهى
فهو يا ربِّ معبدُ الحقِّ ، والإيمانِ ، والنورِ والنقاءِ الإلٰهى
وهو نايُ الجمالِ ، والحبِّ ، والأحلامِ ، لكن قد حطَّمتْه الدواهى

النبي المجهول

أيها الشعب ! ليتنى كنتُ حطَّاباً ... فأهْوِى على الجـــذوع بفأسى !
ليتنى كنتُ كالسيول ، إذا سالت ... تهدُّ القبـــورَ : رمسًا برمس !
ليتنى كنت كالرياح ، فأطوى ... كل ما يخنق الزهور بنحسى !
ليتنى كنت كالشتاء ، أُغَشِّى ... كلَّ ما أذبلَ الخريفُ بقرسى !
ليت لى قوَّةَ العواصف ، يا شعبى ... فألقى إليـــك ثورَةَ نفسى !
ليت لى قوة الأعاصير ، إن ضجَّتْ ... فأدعـوك للحيـــاة بنبسى !
ليت لى قوة الأعاصير . . ! لـكن ... أنت حىٌّ ، يقضى الحياة برمس ..!
أنت رُوحٌ غَبِيَّةٌ ، تكره النُّورَ ، ... وتقضِى الدهورَ فى ليْل مَلس . . .
أنت لا تدرك الحقائق إن طافتْ ... حواليكَ دون مسٍّ وجس . . .
فى صباح الحياة ، ضَمَّخْتُ أكوابى ... وأترعتُها بخمْـرةِ نفسى . . .
ثمَّ قدَّمتُها إليـكَ ، فأهرقْتَ ... رحيقى ، ودُسْتَ يا شعبُ كأسى !
فتألَّمْتُ . . ، ثُمَّ أسكتُّ آلامى ، ... وكفـكفتُ من شعورى وحسى
ثم نضَّدتُ من أزاهـير قلبى ... باقةً ، لمْ يَمَسَّها أىُّ إنْسِى . . .
ثم قدَّمتُها إليـــكَ ، فمزَّقْتَ ... ورودى ، ودُستَها أىَّ دوس
ثم ألبستَنى من الحزن ثوباً ... وبشـوك الجبال توَّجتَ رأسى

* * *

إننى ذاهبٌ إلى الغاب ، يا شعبى ... لأقضى الحياةَ ، وحدى ، بيأس

إننى ذاهب إلى الغاب ، علّى ... فى صميم الغابات أدفن بؤسى

أنم أنساكَ ما استطعتُ ، فما أنتَ ... بأهلٍ لحرتى ولكأسى

سوف أتلو على الطيور أناشيدى ، ... وأفضى لها بأشواق نفسى

فهى تدرى معنى الحياة ، وتدرى ... أنّ مَجْدَ النفوس يقظةُ حس

ثمّ أقضى هناك ، فى ظلمة الليل ، ... وألقى إلى الوجود ببأسى

ثم تحتَ الصّنوبرِ ، الناضر ، الحلو ، ... تخطُّ السيول حفرةَ رمسى

وتظلّ الطيورُ تلغو على قبرى ... ويشدو النسيمُ فوق ، بهمس

وتظلّ الفصولُ تمشى حوالىّ ، ... كما كُنّ فى غضارة أمسى

* * *

أيها الشعب ! أنتَ طفل صغير ، ... لاعب بالتراب والليلُ مُمْس . . !

أنتَ فى الكون قوّةٌ ، لم تَسُسْها ... فكرة ، عبقرية ، ذات بأس

أنت فى الكون قوةٌ ، كبّلتْها ... ظلماتُ العصور ، من أمس أمس . . .

والشقىُّ الشقىُّ من كان مثلى ... فى حساسيّتى ، ورقّةِ نفسى

* * *

هكذا قال شاعرٌ ، ناولَ الناسَ ... رحيقَ الحياة فى خير كأس

فأشاحوا عنها ، ومرّوا غضابا ... واستخفّوا به ، وقالوا بيأس :

« قد أضاع الرشاد فى ملعب الجن ... فيا بؤسه ، أصيب بمس »

« طالما خاطبَ العواصفَ فى الليل ... وناجى الأموات فى غير رمس »

« طالما رافقَ الظلامَ إلى الغاب ... ونادى الأرواحَ من كل جنس »

« طالما حدّثَ الشياطين فى الوادى ، ... وغنّى مع الزياخ بجرس »

« إنه ساحرٌ ، تعلّمَه السحرَ الشياطينُ ، كلَّ مطلع شمس »
« فابعدوا الكافرَ الخبيثَ عن الهيكل إنَّ الخبيثَ منبعُ رجس »
« اُطردوه ، ولا تُصيخوا إليه فهو روحٌ ، شرّيرةٌ ، ذات نحس »

* * *

هكذا قال شاعرٌ ، فيلسوف ، عاش فى شعبه النبيِّ بنفس
جَهِلَ الناسُ روحَه ، وأغانيها فساموا شعورَه سوْمَ بخس
فهو فى مذهب الحياة نبىء وهو فى شعبه مصابٌ بمس
هكذا قال ، ثمَّ سار إلى الغاب ، ليحيا حياةَ شعر وقدس
وبعيدًا .. ، هناك .. ، فى معبد الغاب الذى لا يُظِلُّه أىُّ بؤس
فى ظلال الصنوبر الحلو ، والزيتون يقضى الحياة : حرسا بحرس
فى الصباح الجميل ، يشدو مع الطير ، ويمشى فى نشوة المتحسِّى
نافخًا نايَه ، حواليه تهتزُّ ورودُ الربيع من كلِّ فنس
شَعْرُه مُرْسَلٌ — تداعبه الريحُ على منكبيْه مثل الدمقس
والطيورُ الطِّرابُ تشدو حواليه وتلغو فى الدوح ، من كل جنس
وتراه عند الأصيل ، لدى الجدول ، يرنو للطائر المتحسِّي
أو يغنِّى بين الصنوبر ، أو يرنو إلى سُدْفَة الظلام المسى
فإذا أقبل الظلامُ ، وأمستْ ظلماتُ الوجود فى الأرض تغشى
كان فى كوخه الجميل ، مقيما يسأل الكون فى خشوع وهمس
عن مصبِّ الحياة ، أين مداه ؟ وصميمِ الوجود ، أيّانَ يُرسى ؟

وأريجِ الورود ، فى كلِّ وادٍ ، ونشـــيدِ الطيور ، حين تمسّى
وهـــزيم الرياح ، فى كل فجٍّ ورسوم الحياةِ من أمس أمس
وأغـــــانى الرعاةِ أين يُوارِيها سكونُ الفضا ، وأيّان تمسى ؟ ؟

* * *

هكذا يصرف الحيـاةَ ، ويُفنى حَلَقَاتِ السنين : حَرْسا بحرس
يا لها من معيشةٍ فى صميم الغاب ، تضـــحى بين الطيور وتمسى !
يا لها من معيشـــة ، لم تُدنّسْهـا نفوس الورى بخبث ورجس !
يا لهـا من معيشة ، هىَ فى الكـون حيـاةٌ غريبـةٌ ، ذات قُدس

صفحة من كتاب الدموع

غمّاه الأمسُ ، وأطربه وشجاه اليومُ ، فما غده ؟
قد كان له قلبٌ ، كالطفل ، يدُ الأحلام تهدهده
مُذْ كان له مَلَكٌ فى الكون جميلُ الطلعة ، يعبده
فى جَوْفِ الليل ، يناجيه وأمامَ الفجر ، يمجده
وعلى الهضبات ، يغنّيه آياتِ الحب ، ويُنشده
لولاه لما عَذُبَتْ فى الكون مضادره وموارده
ولَمَا فاضتْ بالشِّعْر الحىِّ مشاعره وقصائده
تمشى فى الغاب ، فتَتْبَعه أفراح الحُبّ ، وتنشده
ويرى الآفاقَ فيُبْصِرها زُمرًا فى الثُّور ، تُراصده
ويرى الأطيارَ ، فيحسبُها أحلامَ الحب تغرده
ويرى الأزهار ، فيحسبها بَسَماتِ الحب توارده
فيخال الكون يناجيه ! وجمالَ العالم يسعده !
ونجومَ الليل تضاحكه ! ونسيمَ الغاب يطارده !
ويخال الوردَ يداعبه فرِحًا ، فتعابثه يده ! . .
ويرى الينبوعَ ، ونَضرتَه ، ونسيمُ الصُّبْح يجدِّده
وخريرُ الماء له نغَمٌ نسماتُ الغاب تردده

ويرى الأعشاب وقد سمقت بين الأشجار تشاهده
ونِطافُ الطلِّ تُنَمِّقُها فيجل « الحبَّ » ويحمده

* * *

يا للأيام ! فكم سرَّتْ قلبًا فى الناس لتكمده
هى مثل العاهر ، عاشقها تسقيه الخمر . . ، وتطرده !
يعطيكَ اليومُ حلاوتَها كالشهد ، ليسلبَها غدُه !

* * *

بالأمس يعانقها فرحًا ويضاجعُها ، فتُوَسِّده
واليومَ ، يُسايرها شبَحًا أضناه الحزنُ ، ونكَّده
يتلو فى الغاب مراثيَه وجذوعُ السَّرْوِ تسانده
ويماشى الناس ، وما أحدٌ منهم يَشجيه تفرُّده
فى ليل الوحشةِ مَسْراه وبكهف الوحدة مرقده
أصوات الأمس تعذِّبه وخيال الموت يُهدِّده

* * *

بالأمس ، له شفَقٌ فى الكون يضىء الأفْقَ تورُّدُه
واليومَ ، لقد غشَّاه الليلُ فمن فى العالم يُسْعده
غنَّاه الأمسُ وأطربه وشجاه اليوم ، فما غده ؟

شجون

عجباً لى ! أودُّ أن أفهمَ الكونَ ، ونفسى لم تستطع فهم نفسى !
لم أفِدْ من حقائق الكون إلاَّ أننى فى الوجود مُرْتَادُ رمس
كلُّ دهر يمُرُّ يفجع قلبى ليت شعرى ! أينَ الزمان المُؤَسِّى
فى ظلام الكهوف أشباحُ شؤمٍ وبهذا الفضاء أطيافُ نحس
وخلالَ القصور أنَّاتُ حُزْنٍ وبتلك الأكواخ أنضاء بؤس !
والفضاء الأصمُّ يعتسفُ النا ـسَ ويقضى ما بين سيف وقوس !

* * *

هذه صورة الحياة ، وهذا لونُها فى الوجود ، من أمس أمس
صورةٌ للشقاء دامعة الطرف ولونٌ يسودُّ فى كل طِرس

(١) الجمال المنشود

يا عذارى الجمال ، والحب ، والأحلام ، بل يا بهاء هـــذا الوجود !
قد رأينا الشـــعورَ منسدلاتٍ كَلَّلَتْ حســنَها صِباحُ الورود
ورأينا الجفون تبسم . . ، أو تحـلم بالنور ، بالهوى ، بالنشـيد . . .
ورأينا الخدودَ ، ضرَّجَها السِّحْرُ ، فَآهاً من سحر تلك الخـدود !
ورأينا الشفاهَ تبسم عن دنيا من الورد ، غضَّـةٍ ، أُمْلود
ورأينا النهودَ تهتزُّ ، كالأزهار فى نشوة الشباب السعيـد
فتـنةٌ ، توقظ الغرام ، وتذكيـه ، ولكن ماذا وراء النهـود ؟
ما الذى خلف سحرها الحالم ، السكران ، فى ذلك القرار البعيـد . . ؟
أنفوس جميلةٌ ، كطيور الغاب تشـدو بساحر التـغريد
طاهراتٌ ، كأنها أرَجُ الأزهار فى مولد الربيع الجـديد ؟
وقلوبٌ مُضيئةٌ ، كنجوم الليل ضَوَّاعةٌ ، كغضِّ الورود ؟
أم ظلامٌ ، كأنه قِطَعُ الليـل ، وهـولٌ يُشيبُ قلبَ الوليـد
وخِضَمٌّ ، يموج بالإثم والنُّكر ، والشر ، والظلال المديد ؟
لستُ أدرى ، فربَّ زهرٍ شذِيٍّ قاتل رغم حسـنه المشهود

صانكنَّ الإلهُ من ظلمةِ الروح ومن ضِـلَّة الضـمير المَريد
إنَّ ليلَ النفوس ليلٌ مُرِيعٌ سرمدىُّ الأسى ، شنيع الخلود
يرزح القلب فيه بالألم المُرِّ ، ويشقى بعيشـة المنكود
وربيع الشباب يُذبله الدهر ، ويمضى بحسـنه المعبود
ما غير باقٍ فى الكون إلاَّ جمال الرُّوح غضًّا على الزمانِ الأبِيد

(٢) طريق الهاوية

يا عذارى الجمال، والحب، والأحلام، بل يا بهاء هـذا الوجود !
خلق البلبل الجميـل ليشدو وخلقتنَّ للغرام السـعيد
والوجودُ الرحيبُ كالقبر ، لولا ما تُجَنِّينَ من قُطوب الوجود
والحياةُ التى تخِرُّ لها الأحلامُ موتٌ مثقَّلٌ بالقيـود . . .
والشبابُ الحبيبُ شيخوخةٌ تسعى إلى الموت فى طريق كؤود . . .
والربيعُ الجميلُ فى هاته الدنيا خريفٌ ، يُذوِى رفيفَ الورود...
والوردُ العِذابُ فى ضفَّة الجدول شوكٌ ، مُصفَّحٌ بالحديد . . .
والطيورُ التى تُغنِّى ، وتقضى عَيْشَهـا فى ترنُّمٍ وغريد ؟
إنها فى الوجود تشكو إلى الأيَّام عبء الحياة بالتغريد . . .
والأناشـيد ؟ إنها شهقاتٌ تتشظَّى من كل قلب عميد . . .

صورةٌ للوجود شوّهاه ، لولا شفَقُ الحسن فوق تلك الخدود

* * *

يا زهور الحياة ، للحب أنتنّ ولكنه مُخيفُ الورود
فسبيلُ الغرام جمُّ المهاوى وافرُ الهول ، مُستابُ الصعيد
رغمَ ما فيه من جمالٍ ، وفنٍّ عبقريٍّ ، ما إنْ له من مزيد
وأناشيدَ ، تُسكِرُ المَلأَ الأعلى ، وتُشجِي جوانحَ الجلمود
وأريجٍ ، يكاد يذهب بالألباب ما بين غامضٍ وشديد
وسبيلُ الحياة رحْبٌ ، وأنتنّ اللواتى نفرشنه بالورود
إن أردتنّ أن يكون بهيجاً رائع السحر ، ذا جمالٍ فريد
أو بشوكٍ ، يُدمِي الفضيلةَ والحبّ ويقضى على بهاء الوجود
إن أردتنّ أن يكون شنيعاً ، مظلمَ الأفقِ ميّتَ النغريد

الأشواق التائهة

يا صميمَ الحياة ! إنى وحيدٌ ، مدْلجٌ ، تائه . فأين شروقُكْ ؟
يا صميمَ الحياة ! إنى فؤادٌ ، ضائع ، ظامئ . فأين رحيقك ؟
يا صميم الحياة ! قد وجمَ النَّاىُ وغام الفضا . فأين بروقك ؟
يا صميم الحياة ! أين أغانيك ! فتحت النجوم يُصغِى مَشوقك

* * *

كنتُ فى فجرك ، الموشَّح بالأحلام ، عِطْراً ، يُرِفُّ فوق ورودِكْ
حالمًا ، ينهل الضياء ، ويُصغى لكَ ، فى نشوةٍ بوحى نشيدك
ثُمَّ جاء الدجى . . ، فأمسيتُ أوراقاً ، بدادًا ، من ذابلات الورود
وضباباً من الشذى ، يتلاشى بين هول الدجى وصَمت الوجود
كنتُ فى فجرِكَ المغلَّف بالسحر ، فضاءً من النشيد الهادى
وسحاباً من الرُّؤى ، يتهادى فى ضمير الآزال والآباد
وضياءً ، يعانق العالَمَ الرحب ، ويسرى فى كل خافٍ وباد
وانقضى الفجرُ . . ، فانحدرتُ من الأفق تراباً إلى صميم الوادى

* * *

يا صميم الحياة ! كم أنا فى الدنيا غريبٌ ! أشقى بغربة نفسى
بين قومٍ ، لا يفهمون أناشيدَ فؤادى ، ولا معانىَ بؤسى

فى وجودٍ مكبّل بقيودٍ ، تائهٍ فى ظلام شكٍّ ونحس
فاحتضِنّى ، وضُمّنى لك — كالماضى — فهذا الوجودُ علّةُ يأسى

* * *

لم أجد فى الوجود إلا شقاءً ، سرمديًّا ، ولذّةً ، مضمحلّهْ
وأمانىَّ ، يُغرق الدمعُ أحلاها ، ويُفنى يمُّ الزمان صداها
وأناشيدَ ، يأكل اللهَبُ الدّامِى مسرّاتِها ، ويُبْقِى أساها
ووروداً ، تموت فى قبضة الأشواك . ما هذه الحياة المُملّهْ ؟!
سأمٌ هذه الحياة مُعَادٌ وصباحٌ ، يكرُّ فى إثر ليل
ليتنى لم أفِدْ إلى هذه الدنيا ، ولم تسبح الكواكبُ حولى
ليتنى لم يعانق الفجر أحلامى ، ولم يلثم الضياء جفونى
ليتنى لم أزل — كما كنت — ضوءا ، شائعا فى الوجود ، غيرَ سجين

أحلام شاعر

ليت لى أن أعيش فى هـذه الدنيا سعيدًا بوحـــدتى وانفرادى
أصرف العمر فى الجبال ، وفى الغابات ،
بين الصنـــوبر الميَّـــاد

ليس لى من شواغل العيش ما يصرف نفسى عن استماع فؤادى
أرقبُ الموتَ ، والحياةَ ، وأصغى لحـــديث الآزال والآباد
وأغنِّى مع البلابل فى الغاب ، وأصغى إلى خرير الوادى
وأناجى النجومَ ، والفجرَ ، والأطيارَ والنهـــرَ ، والضياء الهادى
عِيشةً للجمال ، والفن ، أبغيها بعيدًا عن أمَّتِى وبلادى
لا أغنِّى نفسى بأحزان شعبى فهو حىٌّ ، يعيش عَيْشَ الجماد !
ويحسبى من الأسى ما بنفسى من طريفٍ مُسْتَحْدَثٍ ، وتِلاد
وبعيداً عن المدينة ، والناس ، بعيداً عن لغو تلك النوادى
فهو من معدن السخافة والإفك ومن ذلك الهُراء العادى
أيْنَ هُو من خريرِ ساقية الوادى وخفْق الصدى ، وشدوِ الشادى
وحفيفِ الغصون ، نمَّقها الطلُّ وهمسِ النسيم للأوْراد ؟
هـــذه عِيشةٌ تقدِّسها نفسى وأدعو لمجـــدها ، وأنادى

قيود الأحلام

وأودُّ أن أحيا بفكرة شاعر ... فأرى الوجودَ يضيق عن أحلامى

إلاَّ إذا قطَّعتُ أسبابى مع الدنيا ... وعشتُ لوحدتى وظلامى

فى الغاب ، فى الجبل البعيد عن الورى ... حيث الطبيعة ، والجمال السامى

وأعيشُ عِيشَةَ زاهدٍ مُتَنَسِّكٍ ... ما إنْ تُدَنِّسه الحياة بذام

هَجَرَ الجماعةَ للجبال ، تورُّعًا ... عنها ، وعن بطش الحياة الدامى

تمشى حواليه الحياة كأنها ... الحلمُ الجميل ، خفيفةَ الأقدام

وتَخِرُّ أمواج الزمان بهيبةٍ ... قدسيَّةٍ ، فى يمِّها المترامى

فأعيش فى غابى حياةً ، كلها ... للفنِّ للأحلام ، للإلهام

لكننى لا أستطيع ، فإنَّ لى ... أمًّا ، يصدُّ حنانُها أوهامى

وصِغارَ إخوانٍ ، يرون سلامهم ... فى الكائنات معلَّقًا بسلامى

فقدوا الأبَ الحانى ، فكنتُ لضعفهم كهْفًا ، يَصُدُّ غوائلَ الأيام

ويَقيهم وَهَجَ الحياة ، ولفحَها ... ويَذود عنهم شِرَّةَ الآلام

فأنا المكبَّلُ فى سلاسلَ ، حيَّةٍ ، ... ضحَّيتُ من رأفى بها أحلامى

وأنا الذى سكَنَ المدينة ، مُكْرَهًا ... ومشى إلى الآتى بقلبٍ دام

يصغى إلى الدنيا السخيفةِ راغمًا ... ويعيش مثل الناس بالأوهام

وأنا الذى يحيا بأرض ، قفرةٍ ... مدحوَّةٍ للشكِّ والآلام . .

هجمتْ بيَ الدنيا على أهوالها وخِضمِّها الرحب ، العميق الطامى
من غير إنذارٍ فأحملَ عُدَّتى وأخوضه كالسابح العوّام
فتحطّمتْ نفسى على شطآنه وتأجّجتْ فى جوِّه آلامى

* * *

الويل للدنيا التى فى شرْعِها فأْسُ الطَّغام كريشةِ الرسام ؟

؟

ارى هيكلَ الأيام يعلو ، مُشيَّدًا ولا بد أن يأتى على أُسِّه الهدمُ
فيُصبِحَ ما قد شيَّد اللهُ والورى خرابًا ، كأنَّ الكلَّ فى أمسه وهم !
فقل لىَ : « ما جدْوَى الحياةِ وكرْبِها ، وتلك التى تذوِى ، وتلك التى تنمو ؟ »
« وفوْجٍ ، تغذِّيه الحياةُ لِبَانَها ، وفوْجٍ ، يُرى تحت التراب له ردم ؟ »
« وعقْلٍ ، من الأضواء ، فى رأس نابغ وعقلٍ ، من الظلماء ، يحمله قَدْم ؟ »
« وأفئدةٍ حرى ، تذوب كآبةً وأفئدةٍ ، سكرى ، يَرِفُّ لها النجم ؟ »
لِتعْسِ الورى ، شاء الإله وجودَهم فكان لهم جهلٌ ، وكان لهم فهمُ ! !

أنا أبكيك للحب

لستُ يا أمسى أبكيك لمجـــدٍ أو لجاهْ
سلبته منّىَ الدُّنيا ، وبزّتنى رداهْ
فأنا أحتقرُ المجـــدَ ، وأوهامَ الحياهْ

* * *

أو لعُمْرٍ ، بلغتْ منـــه اللّيالى منتهاهْ
وتلاشتْ فى خضم الزّمَنِ الطاغى قواهْ
فأنا مازلت فى فجر شبابى أو ضُحاه

* * *

لا ، ولا أبكيكَ يا أمسى، إذا ما قلت : « آهْ »
لنعيمٍ ، لم يَنلْ قلبىَ منـه مُشْتهاهْ
فبنُو الأيام فى الدنيا كما شـاء الإلٰه

* * *

إنما أبكيك للحبِّ ، الذى كان بَهاهْ
يَمْلأُ الدنيا ، فأنّى سرتُ فى الدُّنيا أراهْ
فإذا ما لاحَ فَجْرٌ ، كان فى الفجر سناهْ
وإذا غرّد طيرٌ ، كان فى الشَّدْو صداهْ

وإذا ما ضاع عِطْرٌ ، كان فى العطر شذاهْ
وإذا ما رفَّ زهرٌ ، كان فى الزَّهر صِباهْ
فهو فى الكون جمالٌ ، يَملأُ الأُفْقَ ضِياهْ
وتُوَشِّى هذه الأكوانَ بالسِّحر رُؤاهْ
وهو فى قلبى — الذى عانقه الفجرُ — إلهْ !
عبقريُّ السِّحرِ ، ممراحٌ ، وديعٌ فى سماهْ
يَنْسجُ الأحلامَ فى قلبى بأضواء الحياهْ
ويُغنِّينى ، فأنسَى فى مسرَّاتِ غِناهْ
كلَّ ما فى الكون من حزنٍ وأفراحٍ ، عَداهْ

سِرُّ النهوض

لا ينهض الشعبُ إلاَّ حين يدفعه
عزمُ الحياة ، إذا ما استيقظتْ فيه
والحَبُّ يخترق الغبراء ، مندفعًا
إلى السماء ، إذا هبَّتْ تناديه
والقيدُ يألفُه الأمواتُ ، ما لبثوا
أمَّا الحيـــاةُ فيُبْليها وتُبليـه

أبناء الشيطان

أيُّ ناسٍ هذا الورى ؟ ما أرى إلاَّ برايا ، شقيَّةً ، مجنونهْ
جبَّلتْها الحياةُ فى ثورةِ اليأسِ من الشرِّ ، كىْ تُجَنَّ جنونهْ
وأقامتْ له المعابدَ ، فى الكون ، وصلَّت له وشادت حصونهْ

* * *

كم فتاةٍ ، جميلةٍ ، مدحوها وتغنَّوْا بها لكىْ يُسقِطُوها
فإذا صانت الفضيلة عابوها ، وإن باعتْ الخنا عبدوها
أصبحَ الحسنُ لعنةً ، تهبط الأرض ، ليغوَى أبناؤُها وذوُوها

* * *

وشقىٍّ ، طاف المدينةَ ، يستجدى ليحيا ، فخيَّبوه احتقارا
أيقظوا فيه نزعةَ الشرِّ ، فانقضَّ على الناسِ فاتكاً جبَّارا
يبذر الرُّعبَ فى القلوبِ ، ويُذكِى — حيثما حلَّ — فى الجوانح نارا

* * *

ونبىءٌ ، قد جاء للناس بالحق ، فكالوا له الشتائمَ كيْلا
وتنادَوْا به : « إلى النار ! فالنار بروح الخبيث أحرى وأولى »
ثُمَّ ألقوْه فى اللهيب ، وظلُّوا يملأون الوجودَ رُعبًا وهولاَ

* * *

وشعوبٍ ، ضعيفةٍ ، تتلظَّى في جحيم الآلامِ عامًا فعاما
والقويُّ الظلومُ يَعْصِرُ من آلامها السُّودِ لَذَّةً ومُدَاما
يتحسَّاه ضاحكاً . . ، لا يراها خُلِقَتْ في الوجود إلاَّ طعاما !

* * *

وفتاةٍ حسبتُها مَعْبَدَ الحبِّ ، فألفيتُ قلبَها مَا خُورا !
ونبيلٍ ، وجدته في ضياء الفجر قلبًا ، مُدَنَّسًا ، شرِّيرا !
وزعيمٍ أجلَّه النَّاسُ حتى ظنَّ في نفسه إلهًا صغيرا !

* * *

وخبيثٍ ، يعيشُ كالفأْسِ ، هدَّامًا ، ليَعْلُو بينَ الخراب بناءهْ
وقويٍّ ، يُطاوِلُ الجبَلَ العالِي ، فلله ما أشدَّ غباءهْ !
ودنيءٍ ، تاريخُه في سِجِلِّ الشرِّ : إفكٌ ، وقِحَّةٌ ، ودناءهْ

* * *

كان ظنِّي أنَّ النفوس كِبارٌ فوجدتُ النفوس شيئاً حقيرَا
لوَّثتْهُ الحياةُ ، ثمَّ استمرَّتْ تبذرُ العالَمَ العريضَ شرورَا
فاحصدوا الشَّوْكَ . . ، يابنيها وضِجُّوا
واملأُوا الأرض والسماء حبورا

صلوات في هيكل الحب

عذبةٌ أنتِ كالطفولةِ ، كالأحلام كاللحن ، كالصباح الجديدِ
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد ، كابتسام الوليـــد
يا لها من وداعةٍ وجمال وشبابٍ مُنَعَّمٍ أمْلود !
يا لها من طهارةٍ ، تبعثُ التقديـ ـسَ في مهجة الشقيِّ العنيد ! . . .
يا لها رقةً تكادُ يَرِفُّ الوَرْ دُ منها في الصخرة الجلمود !
أيُّ شيءٍ تُراكِ ؟ هل أنتِ «فينيسُ» تَهادتْ بين الورى من جديد
لِتُعيدَ الشبابَ والفرح المعسولَ للعالم التعيسِ العميد !
أم ملاكُ الفردوس جاء إلى الأر ض ليُحْيي روحَ السلام العهيد !
أنتِ ... ما أنتِ ؟ أنتِ رسمٌ جميلٌ عبقريٌّ من فنِّ هذا الوجود
فيكِ ما فيه من غموضٍ وعمقٍ وجمالٍ مُقَدَّسٍ معبـــود
أنتِ . ما أنتِ ؟ أنتِ فجرٌ من السحر تجلَّى لقابِيَ المعـــود
فأراه الحياةَ في مورِق الحسن وجلَّى له خفـــايا الخلود
أنتِ روح الربيع ، تختال في الدنيـــا فتهتزُّ رائعاتُ الورود
وتهبُّ الحياة سكرى من العِطْر ، ويدْوِي الوجودُ بالتغريد
كلما أبصرتكِ عيناىَ تمشين بخطوٍ موقَّعٍ كالنشـــيد
خَفَقَ القلبُ للحياة ، ورفَّ الزَّهـ ـرُ في حقل عمرىَ المجرود

وانتشتْ روحيَ الكئيبةُ بالحبِّ وغنتْ كالبلبلِ الغرِّيد

أنتِ تُحيينَ فى فؤادىَ ما قد مات فى أمسىَ السعيدِ الفقيد

وتشيدين فى خرائب روحى ما تلاشى فى عهدىَ المجدود

من طموح إلى الجمالِ إلى الفنِّ ، إلى ذلك الفضاء البعيد

وتُبثّين رقة الشوق ، والأحلامِ والشدوِ ، والهوى ، فى نشيدى

بعد أن عانقتْ كآبةُ أيّامى فؤادِى ، وألجمتْ تغريدى

أنت أنشودة الأناشيد ، غناكِ إلهُ الغناءِ ، ربُّ القصيد

فيكِ شبَّ الشبابُ ، وشّحهُ السِّحْرُ ، وشدوُ الهوى ، وعِطْرُ الورود

وتراءى الجمالُ ، يرقص رقصًا قُدُسيًّا ، على أغانى الوجود

وتهادتْ فى أفقِ روحِكِ أوزانُ الأغانى ، ورقّةُ التغريد

فتمايلتِ فى الوجود ، كلحنٍ عبقرىٍّ الخيالِ حلوِ النشيد :

خطواتٌ ، سكرانةٌ بالأناشيد ، وصوتٌ ، كرجْع نايٍ بعيد

وقوامٌ ، يكاد ينطق بالألحان فى كلِّ وقفةٍ وقعود

كلُّ شىءٍ موقّعٌ فيكِ ، حتّى لفْحَةُ الجيد ، واهتزازُ النهود

أنتِ . . ، أنتِ الحياةُ ، فى قدّمها السامى ، وفى سحرها الشجىِّ الفريد

أنتِ . . ، أنتِ الحياةُ ، فى رِقّةِ الفجر وفى رونق الربيع الوليد

أنتِ . . ، أنتِ الحياةُ ، كلُّ أوانٍ فى رُواءٍ من الشباب ، جديد

أنتِ . . ، أنتِ الحياةُ فيكِ وفى عينَيْـ ـكِ آياتُ سحرها الممْدُود

أنتِ دنيا من الأناشيد والأحْلام والسحْر والخيال المديد

أنتِ فوْق الخيال ، والشِّعرِ ، والفنِّ وفوْق النُّهَى وفوق الحـدودِ
أنتِ قُدْسِي ، ومَعبدى ، وصباحى ، وربيعى ، ونَشْـوَتى ، وخلودى

* * *

يا ابنةَ النُّور ، إنّنى أنا وَحْدى مَـن رأى فيك رَوْعة المعبـود
فدَعينى أعيشُ فى ظلك العـذب وفى قرب حُـسنك المشهود
عِيشةً للجمال ، والفن ، والإلهام والطُّهْر ، والسنَى ، والسـجود
عِيشةَ الناسك البتُول يُناجى الرَّ بَّ فى نشْـوَةِ الذُّهول الشديد
وامنحينى السـلامَ والفرحَ الرو حىَّ يا ضَوْء فجرىَ المنشـود
وارحمينى ، فقدْ تهدَّمتُ فى كو نٍ من اليأس والظلام مَشـيدِ
أنقذينى من الأسى ، فلقد أمسـ ـتُ لا أستطيع حملَ وجودى
فى شعاب الزَّمان والموت أمشى تحت عِبْء الحياة جَمَّ القيود
وأماشى الورَى ونفسىَ كالقبـ ـرِ ، وقلبى كالعالم المهدود :
ظُلْمَةٌ ، ما لها ختامٌ ، وهولٌ شـائعٌ فى سكونها الممدود
وإذا ما اسْتَخفَّنى عَبَثُ النـاس تبسَّمتُ فى أسًى وجُمـود
بسمةً مُرَّةً ، كأنِّىَ أسـتلُّ من الشَّـوْك ذابلاتِ الورود
وانفخى فى مشاعرى مَرَحَ الدنيا وشُـدِّى من عزمىَ المجهود
وابعثى فى دمى الحرارة ، عَلِّى أتغنَّى مع المُنى مِن جـديد
وأبُثُّ الوجـودَ أنغامَ قلبٍ بُلْبُلِىٍّ ، مكبَّلٍ بالحـديد

فالصباحُ الجميلُ يُنعشُ بالدِّفْءِ حياةَ المُحطَّمِ المكدود
أنقذيني ، فقد سئمتُ ظلامي ! أنقذيني ، فقد مللتُ ركودي !

* * *

آهِ يا زهرتي الجميلةُ لو تدرين ما جَدَّ في فؤادِي الوحيد
في فؤادِي الغريبِ تُخلَقُ أكوانٌ من السحر ذات حسن فريد
وشموسٌ وضَّاءةٌ ونجومٌ تنثر النورَ في فضاء مديد
وربيعٌ كأنّه حُلُمُ الشّاعرِ في سَكرة الشباب السعيد
ورياضٌ لا تعرف الحَلَكَ الداجِي ولا ثورةَ الخريف العتيد
وطيورٌ سحريّةٌ تتناغَى بأناشيدَ حلوةِ التغريد
وقصورٌ كأنها الشَّفَقُ المخضُوب أو طلعة الصباح الوليد
وغيومٌ رقيقة تتهادى كأباديدَ من نُثَارِ الورود
وحياةٌ شعريّةٌ هي عندي صورة من حياة أهل الخلود
كلُّ هذا يشيده سحرُ عينيك وإلهامُ حسنك المعبود
وحرام عليكِ أن تهدمي ما شادهُ الحُسنُ في الفؤاد العميد
وحرام عليكِ أن تسْحَقي آمـ ـالَ نفسٍ تصبو لعيشٍ رغيد
منكِ ترجو سعادةً لم تجدها في حياة الورى وسحر الوجود
فالإلهُ العظيمُ لا يَرْحَمُ العَبْدَ إذا كان في جلال السجود

أراك

أراكِ ، فتخلو لدىَّ الحياة ويملأُ نفسى صباحُ الأملْ
وتنمو بصدرى وُرودٌ ، عِذابٌ وتحنو على قلبىَ المشتعلْ
ويفتنني فيكِ فيضُ الحياة وذاك الشّبابُ ، الوديعُ ، الثّمِل
ويفتنني سحرُ تلك الشفاه ترفرف من حولهن القُبَل
فأعبُدُ فيكِ جمالَ السماء ، ورقّةَ وَرْدِ الربيع ، الخضِل
وطُهْرَ الثلوج ، وسِحْرَ المروج مُوَشّحَةً بشعاع الطّفَلْ

* * *

أراكِ ، فأُخلَقُ خَلْقا جديدا كأنّىَ لم أبْلُ حربَ الوجودْ
ولم أحتمل فيه عِبئاً ، ثقيلاً من الذكريات التى لا تَبيدْ
وأضغاثِ أيامىَ ، الغابرات وفيها الشقىُّ ، وفيها السعيدْ
ويغمُرُ روحِى ضياء ، رفيقٌ تكللُه رائعاتُ الورود
وتُسمعُنِي هاته الكائناتُ رقيقَ الأغانى ، وحُلْوَ النشيد
وترقص حولِى أمانٍ ، طِرابٌ وأفراحُ عُمْرٍ خَلِىٍّ ، سعيد

* * *

أراكِ ، فتخفق أعصابُ قلبي وتهتزُّ مثلَ اهتزاز الوتَر
ويُجرِى عليها الهوى ، فى حُنُوّ أناملَ ، لُدْنًا ، كرَطْب الزهر
فتخطو أناشيدُ قلبيَ ، سكْرَى تغرِّدُ ، تحت ظِلال القمرْ
وتملأنِى نشوةٌ ، لا تُحَدُّ كأنِّىَ أصبحتُ فوقَ البشر
أوَدُّ بروحى عناقَ الوجودِ بما فيه من أنفسٍ ، أو شجر
وليلٍ يفرُّ ، وفجرٍ يكرُّ وغَيْمٍ ، يُوَشِّى رداء السحر

رثاء فجر

يا أيها الغاب ، المُنَمَّقُ بالأشـــعَّةِ والورودْ !
يا أيها النـــور النقىُّ ! وأيُّها الفجر البعيد !
أين اختفيتَ ؟ وما الذى أقصاكَ عن هذا الوجود ؟
آهٍ ! لقد كانت حياتى فيك حالمةً ، تميد
بين الخمائل ، والجداول ، والترنم ، والنشيد
تُصغِى لنجواكَ الجميـــلةِ ، وهى أغنيةُ الخلود
وتعيش فى كونٍ من الغَفَلات ، فتّانٍ ، سعيد
آهٍ ! لقد غنَّى الصباحُ ، فَدَمْدَمَ الليـلُ العتيد
وتألّق النجمُ الوضىء ، فأعْتَمَ الغيمُ الركود
ومضى الردى بسعادتى ، وقضى على الحب الوليد

فِكرةُ الفنان

عش بالشعور ، وللشعور ، فإنما دنياكَ كونُ عواطف وشعور
شِيدَتْ على العطفِ العميق ، وإنها لتجفُّ لو شِيدتْ على التفكير
وتظلُّ جامدةَ الجمالِ ، كئيبةً كالهيكلِ ، المتهدِّم ، المهجور
وتظل قاسيةَ الملامحِ ، جَهْمَةً كالموتِ . . ، مُقْفِرَةً ، بغير سرور
لا الحُبُّ يرقص فوقها متغنِّيًا للناس ، بين جداولٍ وزهور
مُتَوَرِّدَ الوجناتِ سكرانَ الخطا يهتزُّ من مَرَحٍ ، وفرْط حبور
متكلِّلاً بالوردِ ، ينثر للورى أوراقَ وردِ « اللَّذةِ » المنضور
كلاَّ ! ولا الفنُّ الجميلُ بظاهرٍ فى الكون تحت غمامةٍ من نور
مُتَوَشِّحًا بالسِّحْر ، ينفُخ نايَه المشبوبَ بين خمائلٍ وغدير
أو يلمس العودَ المقدَّسَ ، واصفًا للموت ، للأيام ، للديجور
ما فى الحياة من المسرة ، والأسى والسِّحْرِ ، واللَّذات ، والتغرير
أبَدًا ولا الأملُ المُجَنَّحُ مُنْشِدًا فيها بصوت الحالِمِ ، المحبور
تلك الأناشيد التى تَهَبُ الورى عزْمَ الشبابِ ، وغبْطةَ العصْفور

* * *

واجعل شعورَك ، فى الطبيعة قائدًا فهو الخبير بتيهها المسحور
صَحِبَ الحياةَ صغيرةً ، ومشى بها بين الجماجم ، والدمِ المهدور

وعَدَا بها فوق الشواهِق ، باسماً متغنِّيا ، من أعصُرٍ ودهـور

والعقلُ ، رغمَ مَشِيبِه ووَقارِه ، ما زال فى الأيام جدَّ صـغيرِ

يمشى.. ، فتصرعه الرياح.. ، فَيَنْثَنِي مُتوجِّعًا ، كالطائر المـكسور

ويظلُّ يسألُ نفسـه ، متفلسفا مُتَنَطِّساً ، فى خِفَّةٍ وغرور :

عمَّا تُحَجِّبُهُ الـكواكبُ خلفَها من سرِّ هذا العالَمِ المستور

وهو المهشَّمُ بالعواصف . . ! يالَهُ من ساذجٍ ، متفلسفٍ ، مغرور !

* * *

وافتحْ فؤادكَ للوجود ، وخلِّه لليمِّ للأمواج ، للديجـور

للثَّلج تنثُرُهُ الزوابعُ ، للأسى للهول ، للآلام ، للمقـدور

واتركه يقتحم العواصفَ ، هائماً فى أفْقها ، المتبدِّدِ ، المقـرور

ويخوض أحشاء الوجود .. ، مُغامِرًا فى ليلِها ، المتهيِّبِ ، المحذور

حتَّى تعانقه الحياةُ ، ويرتوِى من ثغرِها المتأجِّجِ ، المسجور

فتعيشَ فى الدنيا بقلب زاخِرٍ يقِظِ المشاعِرِ ، حالمٍ ، مسحور

فى نشوةٍ ، صُوفِيَّةٍ ، قدُسيةٍ ، هىَ خير ما فى العـالَمِ المنظور

قلب الأم

يا أيُّها الطفلُ الذى قد كان كاللَّحن الجميـلْ
والوردةِ البيضـاء ، تعبَق فى غيابات الأصيل
يا أيُّها الطفلُ الذى قد كان فى هـذا الوجودْ ،
فَرِحًا ، يناجى فتنةَ الدنيا بمعسـول النشيد
ها أنتَ ذا قد أطبقتْ جفنَيْكَ أحلامُ المَنونْ
وتطايرتْ زُمَرُ الملائكِ حولَ مضجعِكَ الأمينْ
ومضتْ بروحكَ للسماء عرائسُ النُّورِ الحبيبْ
يحملْنَ تيجانًا ، مُذَهَّبَةً ، من الزَّهَرِ الغريبْ
ها أنت ذا قد جَلَّلَتْكَ سكينةُ الأبدِ الكبيرْ
وبكتك هاتيك القلوبُ ، وضمَّك القبرُ الصغير
وتفرَّق الناسُ الذين إلى المقابر شيَّعوكْ
ونسُوكَ من دنياهمُ ، حتى كأنْ لم يعرفوك
شغلتهُمُ عنكَ الحياةُ ، وحربُ هذى الكائناتْ
إنَّ الحياةَ — وقد قضيتَ قَبيْلَ معرفةِ الحياةْ —
بحرٌ ، قرارتُه الرَّدى ، ونشيدُ لُجَّته ، شَكاةْ
وعلى شواطئه القلوبُ تئنُّ ، داميةً عُراةْ

بحرٌ ، تجيشُ به العواصفُ فى العشيَّةِ والغداةْ
وتُظِلُّهُ سُحُبُ الظلام ، فلا سكونَ ولا إياةْ
نَسِيَتْكَ أمواجُ البحَيْرَةِ ، والنجومُ اللَّامعةْ
والبابلُ الشـــادى ، وهاتيك المروجُ الشاسعةْ
وجداولُ الوادى النضـــــيرِ برقصها وخريرها
ومسالكُ الجبل الصـــــغير بعُشْبها وزُهورها
حتّى الرفاقُ . . ، فإنهم لبثوا مدًى يتساءلونْ
فى حيرةٍ مشبوبةٍ : « أين اختفى هذا الأمين ؟ »
لـكنهم علِموا بأنك فى الليـــــالى الداجيهْ
حملتكَ غِيلانُ الظلام إلى الجبال النائيهْ
فنسُوكَ مثلَ الناس . . ، وانصرفوا إلى اللهو الجميلْ
بينَ الخمائلِ ، والجداولِ ، والروابى ، والسُّهولْ
ونسُوا وداعةَ وجهك الهادى ، ومنظَرَكَ الوسيمْ
ونسُوا تغَنِّيكَ الجميلَ بصوتكَ الحُلوِ ، الرخيمْ
ومضوْا إلى المَرْج البهيج ، يطاردون طيورَهُ
ويُزحزِحون صُخورَهُ ، ويعابثون زهـــورَهُ
ويُشيِّدون من الرمال البيضِ ، والحصَب النضيرْ
غُرَفًا ، وأكواخًا تكلَّلُها الحشائشُ والزهورْ
ويُضمِّدون من الرُّبا ، بين التضاحك والحبور

طاقاتِ وردٍ آبدٍ ، تُزرى بأوراد القصور
يُلقونها فى النهر ، قرباناً لآلهة السرورْ
فتسير فى التيّار ، راقصةً على نَغَم الخرير
كلٌّ نسُوكَ ، ولم يعودوا يذكرونكَ فى الحياةْ
والدّهر يدفنُ فى ظلام الموتِ حتى الذكريات
إلا فؤادًا ، ظلَّ يخفُقُ فى الوجود الى لقاكْ
ويودُّ لو بَذَلَ الحياةَ إلى المنيّةِ ، وافتداكْ
فإذا رأى طفلاً بكاكَ ، وإنْ رأى شبَحًا دعاكْ
يُصغى لصوتك فى الوجود ، ولا يرى إلاّ بهاكْ
يصغى لنغمتكَ الجميلةِ فى خرير الســـــاقيهْ
فى رنّةِ المزمارِ ، فى لَغْوِ الطيور الشاديهْ
فى ضَجّةِ البحر المُجَلجِل ، فى هَدير العاصفهْ
فى لجّة الغابات ، فى صوت الرعود القاصفهْ
فى نُغْيَة الحَمَل الوديع ، وفى أناشيد الرعاةْ
بين المُروج الخُضرِ والسَّفْح المجلّلِ بالنباتْ
فى آهة الشاكى ، وضوضاء الجموع الصاخبهْ
فى شهقة الباكى يؤجّجُها نُواحُ النادبهْ
فى كلِّ أصواتِ الوجودِ : طَروبِها وكئيبِها
ورخيمِها ، وعنيفِها ، وبغيضِها ، وحبيبِها

ويراك فى صُوَرِ الطبيعة : حلوِها ، ودميمِها
وحزينِها وبهيجِهـا ، وحقيرِها وعظيمِها
فى رقّة الفجرِ الوديعِ ، وفى الليـالى الحالكهْ
فى فتنة الشفقِ البديعِ ، وفى النجوم الباسمهْ
فى رقْصِ أمواجِ البُحيْرة تحت أضواء النجومْ
فى سِحْر أزهارِ الربيع ، وفى تهاويل الغيوم
فى لَمْعة البرق الخَفُوق ، وفى هُوِىّ الصاعقهْ
فى ذِلّة الوادى ، وفى كِبْر الجبال الشاهقهْ
فى مَشْهَدِ الغابِ الكئيبِ ، وفى الورود[1] العاويهْ
فى ظُلْمة اللّيلِ الحزينِ ، وفى الكهوف العاريهْ
أعَرفتَ هذا القلْبَ فى ظلماء هاتيك اللحودْ ؟
هو قلبُ أمّكَ ، أمّكَ الثكْرَى بأحزانِ الوجود
هو ذلك القلب الذى سيَعيشُ كالشّادى الغريدْ
يشدُو بشكْوَى حزنِه الداجى إلى النفَس الأخير
لا ربّةُ النسيان ترحمُ حزنَه وترى شقاهْ
كلا ! ولا الأيّامُ تُبْلِى فى أناملها أساه
إلا إذا ضفرَتْ له الأقدارُ إكليلَ الجنونْ
وغدا شقيًّا ضاحكاً ، تلهو بمرآه السنون
هو ذلك القلبُ الذى مهما تقلّبت الحياهْ
وتدفّعَ الزمَنُ المُدَمْدِمُ فى شِعابِ الكائناتْ

(١) الورود — جمع ورد : الأسد .

وتغنَّتْ الدُّنيا ، وغرَّد بلبلُ الغاب الجميلْ
سيظلُّ يعبُدُ ذكرياتِكَ : لا يَمَلُّ ، ولا يميلْ
كالأرض : تمشى فوق تُربتها المسرَّةَ ، والشبابْ
والليلُ ، والفجرُ المُجَنَّحُ ، والعواصفُ ، والسحابْ
والحُبُّ تَنبتُ فى مواطنِه الشقائقُ ، والورودْ
والموتُ تُحْفَرُ — أينما يخطو — المقابرُ واللحودْ
وتمرُّ بين فجاجها اللَّذَّات ، حالمةً ، تميدْ
سكرى..، وأشواقُ الورى ترنو إلى الأُفق البعيدْ...
وتظلُّ ترقص للأسى ، لِلَّهْوِ ، أشباحُ الدهورْ
حتّى يواريها ضبابُ الموت فى وادى الدُّثُورْ
وتظلُّ تُورِقُ ، ثمَّ تُزْهِرُ ، ثمَّ ينشرها الصباحْ
للموتِ ، للشوْك المُمزَّقِ ، للجداول ، للرياحْ
بسَماتُ ثَغْرٍ ، حالمٍ ، يقرُّ فى سهْوِ السرورْ
وورودُ روْضٍ ، باسمٍ ، يُصغِى لألحان الطيور
وتظلُّ تخفقُ ، ثم تشْدُو ، ثم يطويها التُرابْ
قُبَلٌ ، وأطيارٌ ، تُغرِّدُ للحياةِ ، وللشبابْ
وتظلُّ تمشِى فى جِوَارِ الموتِ أفراحُ الحياةْ ! . .
ويغرِّدُ الشحرورُ ما بين الجماجم والرُّفاتْ
والأرضُ حالمةٌ : ، تغنِّى بين أسراب النجومْ
أنشودةَ الماضى البعيدِ ..، وسُورةَ الأزَلِ القديم ...

حديث المقبرة

« وهو حوارٌ فلسفيٌّ ، مَدَارُه الحياة »
« والموت ، والخلود والكمال »

فى ليلة مظلمة ، من ليالى الصيف ، خرج الشاعر بنفسه من القرية الصغيرة النائمة فى سفح الجبل ، وفى ذلك السكون الشامل ، والظلام المركوم ، أخذ يمشى بين أشجار الزيتون المزهرة فى مسلك منفرد ، ثم اعتلى تلك الربوة الصغيرة ، حيث كانت مدافن القرية وحيث ينام الموتى فى صمت الدهور .

وبين القبور الخرساء ، الجاثمة تحت أضواء النجوم ، حيث يتحدث كل شىء بجلال الموت وتفاهة الحياة ، جلس الشاعر بأقدام متعبة ، ونفس ثائرة ، وأجفان قد أذبلتها الأحزان ، فطافت بنفسه الأحلام والأفكار والذكريات ، وتقلبت أمامه صور الموت وأمواج الحياة ، وتتابعت أمامه رسوم الأيام الكثيرة ، ما نام منها فى قلب الأزل وما لم يزل ينمو فى أحشاء الأبد الكبير ، وجاشت فى قلبه هاته العصور والخواطر ، وعجت فى صدره عجيج الأمواج الثائرة ، فألقاها إلى الليل فى النشيد التالى :

أتفنى ابتسامات تلك الجفون ؟ ويخبو توهُّجُ تلك الخدود ؟
وتذوِى وُرَيْداتُ تلك الشفاه ؟ وتهوى إلى الترب تلك النهود ؟

وينهدُّ ذاك القـــوامُ الرشيق ... وينحلُّ صـدرٌ ، بديعٌ ، وجيد
وتربدُّ تلك الوجوه الصِّـباحُ ... وفتنةُ ذاك الجمـــال الفريد
ويغبرُّ فرعٌ كجُنح الظـــلام ... أنيقُ الغدائر ، جعدٌ ، مديد
ويُصبحُ في ظلمات القبـــور ... هباءً ، حقيراً ، وتُرْباً ، زهيد
وينجاب سحرُ الغـرام القويِّ ... وسُكرُ الشباب ، الغريرِ ، السعيد

* * *

أتُطوَى سماواتُ هذا الوجود ؟ ... ويذهب هـذا الفضاء البعيد ؟
وتهلك تلك النجومُ القُدامى ؟ ... ويهرم هـذا الزمان العهيد ؟
ويقضِي صباحُ الحياة البديعُ ؟ ... وليلُ الوجود ، الرهيب ، العتيد ؟
وشمسٌ توشِّى رداءَ الغمـام ؟ ... وبدرٌ يضيءُ ، وغيمٌ يجود ؟
وضوءٌ ، يرصِّع موجَ الغدير ؟ ... وسِحْرٌ ، يطرِّز تلك البرود ؟
وبحرٌ فسيحٌ ، بعيد القرار ، ... يضجُّ ، ويدوى دوىَّ الرعود ؟
وريحٌ ، تمرُّ مرورَ المَلاك ، ... وتخطو إلى الغاب خطْوَ الوليد ؟
وعاصفةٌ ، من بنات الجحيم ، ... كأنَّ صداها زئيرُ الأسود
تعجُّ ، فتدوِى حنايا الجبال ... وتمشى ، فتهوِى صخور النُّجود ؟
وطيرٌ ، تغنِّى خلال الغصـون ، ... وتهتف للفجر بين الورود ؟
وزهرٌ ، ينمِّقُ تلك التـــلالَ ... وينهَـلُ من كلّ ضوء جديد ؟
ويعبَق منه أريجُ الغـــرام ... ونفحُ الشباب ، الحيِيِّ ، السعيد ؟

* * *

أيسطو على الكلِّ ليلُ الفناء ليلهو بها الموتُ خلفَ الوجود . .
وينثرها فى الفَراغِ المخيف كما تنثر الوردَ ريحٌ شَرود
فينضب يمُّ الحياة ، الخضمُّ ويَخمد روحُ الربيع ، الوَلود
فلا يلثم النورُ سِحْرَ الخدود ولا تُنبِتُ الأرضُ غضَّ الورود ؟

* * *

كبيرٌ على النفس هذا العفاء ! وصعبٌ على القلب هذا الهمود
وماذا على القَدَر المستمرِّ لو استمرأَ الناسُ طعمَ الخلود
ولم يُخْفَروا بالخراب المحيط ولم يُفْجَعوا فى الحبيب الودود
ولم يَسلكوا للخلود المرجَّى سبيلَ الرَّدى ، وظلامَ اللحود
قدامَ الشبابُ ، وسحرُ الغرام ، وفنُّ الربيعِ ، ولطفُ الورود
وعاش الورى فى سلامٍ ، أمينٍ وعيشٍ ، غضيرٍ ، رخيٍّ ، رغيد ؟
ولكنْ هو القدرُ المستبدُّ يَلَذُّ له نوْحُنا ، كالنَّشيد !

* * *

وكانت بين القبور روح فيلسوف قديم مجهول
فجاءت تزور جسمها الذى أصبح رمة بالية فى أحشاء
التراب ، فأشفقت على الشاعر المسكين من آلامه
الروحية وحيرته الظامئة ، فأرادت أن تعلمه الحكمة
وتسكب فى قلبه برد اليقين فخاطبته بهاته الأبيات :

تبرَّمتَ بالعيش خوف الفناء ولو دمتَ حيًّا سئمتَ الخلود
وعشت على الأرض مثل الجبال جليلاً ، رهيبًا ، غريبا ، وحيد

فلم ترتشف من رضاب الحياة ولم تصطبح من رحيق الوجود
ولم تدر ما فتنة الكائنات وما سحر ذاك الربيع الوليد
وما نشوة الحب عند المحبِّ وما صرخة القلب عند الصدود
ولم تفتكر بالغد المستراب ولم تحتفل بالمرام البعيد
وماذا يُرجِّي ربيب الخلود من الكونِ — وهو المقيم المهيد — ؟
وماذا يودُّ ، وماذا يخافُ من الكونِ — وهو المقيم الأبيد — ؟
تأمَّلْ . . ، فإنَّ نظام الحياة نظام ، دقيق ، بديع ، فريد
فما حبَّبَ العيش إلاَّ الفناء ولا زانَهُ غيرُ خوف اللحود
ولولا شقاء الحياة الأليم لما أدركَ الناسُ معنى السعود
ومن لم يرُعْه قطوبُ الدياجيرِ لم يغتبطْ بالصباح الجديد

* * *

وراق حديث الروح الشاعر العائش بين الهواتف والأشباح . فقال يحاورها :

إذا لم يكن من لقاء المنايا مناصٌ لمن حلَّ هذا الوجود
فأيُّ غناء لهذى الحياة وهذا الصراع ، العنيف ، الشديد
وذاك الجمال الذى لا يُمَلُّ وتلك الأغانى ، وذاك النشيد
وهذا الظلام ، وذاك الضياء وتلك النجوم ، وهذا الصعيد ؟ ؟
لماذا نمر بوادى الزمان سِراعًا ، ولكننا لا نعود
فنشرب من كل نبعٍ شراباً ومنه الرفيع ، ومنه الزهيد

ومنه اللذيذ ، ومنه الكريه ، ومنه المُشيد ، ومنه المُبيد
ونحمل عِبْئًا من الذكريات وتلك العهود التى لا تعود
ونشهد أشكال هذى الوجوه وفيها الشقى ، وفيها السعيد
وفيها البديع ، وفيها الشنيع ، وفيها الوديع ، وفيها العنيد
فيُصبح منها الولىُّ ، الحميم ، ويصبح منها العدو ، الحَقُود
وكلٌّ — إذا ما سألنا الحياةَ — غريبٌ لعمرى بهذا الوجود
أتيناه من عالَمٍ ، لا نراه فُرادى ، فما شأنُ هذى الحُقُود ؟
وما شأنُ هذا العداء العتيقِ ؟ وما شأن هذا الإخاء الودود ؟

* * *

روح الفيلسوف :

خلقنا لنبلغ شأو الكمال ونصبح أهلا لمجد الخلود
وتطهر أرواحنا فى الحياة بنار الأسى . . . . . (١)
ونكسب من عثرات الطريق قُوًى ، لا تُهدُّ بدأب الصعود
ومجداً ، يكون لنا فى الخلود أكاليلَ من رائعات الورود

* * *

ومر بالمقبرة سرب من الأرواح ؛ فى طريقها إلى العالم المجهول ؛ فطارت معها روح الفيلسوف ، وخلفت عالم الشك والكآبة لأبنائه البائسين . وظل الشاعر يردد بينه وبين نفسه :

« خلقنا لنبلغ شأوَ الكمال ونُصبح أهلاً لمجد الخلود »

---

(١) بياض بالأصل والمسودة .

ولكن أفكاره الثائرة التى لا تهدأ كانت لا تزال تلح عليه بالأسئلة الكثيرة المرهقة فقال يناجى روح الفيلسوف التى حسبها ما زالت قريبة منه :

ولكن إذا ما لبسنا الخلود ... ونلنا كمال النفوس البعيد
فهل لا نَمَلُّ دوام البقاء ؟ ... وهل لا نودُّ كمالا جديد
وكيف يكونَنَّ هذا « الكمال » : ... ماذا تراه ؟ وكيف الحدود ؟
وإنَّ جمالَ « الكمال » « الطُّموحُ » ... وما دام « فكرًا » ، يُرَى من بعيد
فما سِحره إنْ غدا « واقعا » ... يُحَس ، وأصبح شيئا شهيد ؟
وهل ينطفى النفوس الحنين ... وتصبح أشواقنا فى خمود
فلا تطمح النفس فوق الكمال ... وفوق الخلود لبعض المزيد ؟
إذا لم يَزُل شوْقُها فى الخلود ... فذاك لعمرى شقاء الجدود
وحربٌ ، ضروسٌ ، — كما قد عهدتُ —
ونصرٌ ، وكسرٌ ، وهمٌّ مديد
وإنْ زال عنها فذاك الفناء ... وإنْ كان فى عرَصَات الخلود

* * *

كذلك ناجى الشاعر روح الفيلسوف ، ولكنها كانت إذ ذاك بعيدة عنه فى عالم بعيد لا يسمع نجواه ؛ وكذلك ضاعت أسئلة الشاعر فى ظلمة الليل الذى لا يسمع ولا يجيب .

فِي ظِلِّ وَادِي المَوْت

نحن نمشي ، وحولنا هذه الأكوا
ن تمشي . . ، لكن لأيّة غايهْ ؟
نحن نشـــدو مع العصافير للشمس ،
وهـذا الربيـــع ينفخ نايهْ
نحن نتلو رواية الكون للموت
ولكن ماذا ختـــام الروايهْ ؟
هكذا قلت للـــرياح فقالت :
« سل ضمير الوجود : كيف البداية ؟ »

* * *

وتغشّى الضباب نفسي ، فصاحت
في مَلالٍ مُرّ : « إلى أين أمشي ؟ »
قلت : « سيري مع الحياة . . » فقالت :
« ما جنينا ، تُرى ، من السيْر أمس ؟
فتهافتُّ كالهشيم — على الأرض
وناديتُ : « أين يا قلب رفشي ؟ »

« هـاتِهِ ، علنى أخط ضريحى »
« فى سكون الدجى وأدفن نفسى »

* * *

« هاتِهِ فالظلام حولى كثيف . . . »
« وضباب الأسى مُنيخٌ علىَّـا . . . »
« وكؤوس الغرام أترعها الفجر ، »
« ولـكن تحطَّمتْ فى يديَّـا . . . »
« والشباب الغرير ولَّى إلى الماضى »
« وخلَّى النحيبَ فى شـفتيَّا ، »
« هاته ، يا فؤادُ إنا غريبان ، »
« نصوغ الحياة فنًّـا شجيًّا . . . »

* * *

« قد رقصنا مع الحياة طويلا . . . »
« وشدونا مع الشباب سنينا . . . »
« وعَدونا مع الليـالى حُفاةً . . . »
« فى شِعاب الحياة حتى دمِينا . . . »
« وأكلنا التراب حتَّى مللنا . . . »
« وشربنا الدموعَ ، حتَّى روِينا . . . »

« ونثرنا الأحلامَ ، والحبَّ ، والآلامَ ... »

« واليأسَ ، والأسى ، حيث شِبنا . . . »

* * *

« ثم ماذا ؟ هذا أنا : صرتُ فى الدنيا »

« بعيداً عن لهـــوها وغِناها »

« فى ظلام الفنـاء ، أدفن أيّامى ، »

« ولا أســـتطيع حتى بكاها ؟ »

« وزهـورُ الحياة تهوِى ، بصَمتٍ »

« مُحزِنٍ ، مُضجرٍ ، على قدميَّا ، »

« جَنَّ سحر الحياة ، يا قلبَ الباكى ، »

« فهيَّا ، نجرب الموت . . ، هيَّا . . ! »

السَّاحِرَة

راعها منه صَمْتُه ووُجُـــومُهْ وشَجاها شُـــحوبُه ومُهُومُهْ
فأمَرَّتْ كفًّا على شَعْره العارى برفقٍ ، كأنّها ســـتُنِيمُهْ
وأطلَّتْ بوجهها الباسم الحـــلو على خدِّه وقالتْ تلومُهْ :
« أيها الطائر الكئيبُ تَغَرَّدْ إنَّ شدْوَ الطيور حلوٌ رخيمُهْ »
« وأجِبْنِي — فدتك نفسىَ — ماذا ؟ أمصابٌ ؟ أم ذاك أمْرٌ ترومه ؟ »
« بل هو الفنُّ واكتئابُه ، والفنَّان جمٌّ أحـــزانُه وهمـــومه »
« أبدًا يحمل الوجود بما فيه كأنْ ليس للوجود زعيمُهْ : »
« خلِّ عبءَ الحياة عنك ، وهيِّا بمحيًّا ، كالصبح ، طلقٍ أديمُهْ »
« فكثير عليك أن تَحْملَ الدنيا وتمشى بوِقـــرها لا تَريمه »
« والوجود العظيم أقْعِدَ فى الماضى وما أنت ربُّه فتقيـــمه »
« وامشِ فى روضة الشباب طَروباً فخواليـــك وَرْدُه وكرومه »
« وانْلُ للحب والحياة أغانيك وخلِّ الشـــقاء تَدْمَى كلومه »
« واحتضنِّى ، فإننى لكَ ، حتى يتـــوارى هذا الدجى ونجومه »
« ودع الحُبَّ يُنشدُ الشعر للَّيل . ، فكم يُسكر الظلامَ رنيمُهْ . . . »
« واقطف الورد من خدودى ، وجيدى ونهودى . . ، وافعل به ما تروم »
« إن لِلْبيت لهوَه ، الناعمَ الحلوَ ، ولِلْكون حربُه وهمومُهْ »

« وارتشفْ من فمى الأناشيدَ سُكرَى ، فالهوى ساحرُ الدلالِ ، وَسيمُه »
« وانْسَ فىَّ الحياةَ . . ، فالعمرُ قفرٌ ، مرعبٌ ، إنْ ذَوَى وجفَّ نعيمُه »
« وارْمِ لليـل ، والضباب ، بعيدًا فَنَكَ ، العابسَ ، الكثيرَ وُجومه »
« فالهوى ، والشبابُ ، والمرح المعـ ـسولُ تشـدو أفنانُه ونسيمه »
« هى فنُّ الحياة ، يا شاعرى الفنَّانَ بل لُبُّ فنِّهـا وصميمُهْ »
« تلك يا فيلسوفُ ، فلسفة الكوْ ن ، ووحْىُ الوجودِ هذا قديمه »
« وهى إنجبلَ الجميلُ ، فصدِّقه وإلاَّ . . ، فللغرام جحيمه . . »
فرماها بنظرة ، غَشِيَتْها سكرةُ الحبِّ ، والأسى وغيومُهْ
وتلاها ببسمة ، رشفتها منه سكرانةُ الشباب ، رؤومُهْ
والتقتْ عندها الشفاهُ . . ، وغنَّتْ قُبَلٌ ، أجفلتْ لديها همومُهْ
ما تريد الهمومُ من عالَمٍ ، ضاءت مسرَّاتُه ، وغنَّتْ نجومُهْ ؟

* * *

ليلةٌ أسبلَ الغرامُ عليها سحرَه ، الناعمَ الطريرَ نعيمُهْ
وتغنَّى فى ظلّها الفرحُ اللاهى فجفَّ الأسى وخرَّ هشيمُهْ
أغرق الفيلسوفُ فلسفة الأحـ ـزان فى بحرها . . ، فَمَنْذا يلومُهْ ؟

* * *

إن فى المرأةِ الجميلةِ سحرًا عبقريًّا ، يُذْكى الأسى ، ويُنيمُهْ

قال قلبى للإلهُ

فى جبال الهموم ، أنبتَّ أغصانى ، فوقَتْ بين الصخور بجَهْد
وتغشَّانِىَ الضبابُ . . ، فأورقتُ وأزهرتُ للعواصف ، وحدى
وتمايلتُ فى الظلام ، وعطَّرتُ فضاء الأسى بأنفاس وردى
وبمجد الحياةِ ، والشوقِ غنّيتُ . . ، فلم تفهم الأعاصيرُ قصدى
ورمَتْ للوهاد أفنانىَ الخضرَ ، وظلَّتْ فى الثلج تحفر لحدى
ومضتْ بالشذى فقلت : « ستبنى فى مروج السماء بالعِطْر مجدى »
وتغزَّلتُ بالربيع ، وبالفجر فماذا ستفعل الريح بعدى ؟

متاعب العظمة

إذا صغرت نفسُ الفتى كان شوقه صغيراً ، فلم يتعب ، ولم يتجشم
ومن كان جبَّارَ المطامع لم يزَلْ يلاقى من الدنيا ضرازةَ قشعم

الجنة الضائعة

كَمْ من عُهودٍ عذبةٍ فى عَدْوَةِ الوادى النضيرْ
فِضِّيةِ الأسحار مُذْهَبَةِ الأصائل والبكور
كانت أرقَّ من الزهور ، ومن أغاريد الطيور
وألذَّ من سحر الصِّبا فى بَسْمَة الطفل الغرير
قضيتها ومعى الحبيبةُ لا رقيب ولا نذير
إلاّ الطفولة حولنا تلهو مع الُحبِّ الصَّغير
أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارةُ الموج الجميل ، وسِحْرُ شاطئه المنير
ووداعة العصفور ، بين جداول الماء النمير
أيامَ لم تعرف من الدُّنيا سوى مَرَح السُّرور
وتَتَبُّعِ النَّحْل الأنيقِ وقَطْفِ تيجانِ الزهور
وتسلُّقِ الجبلِ المكلل بالصَّنَوْبَر والصخور
وبناء أكواخ الطفولة تحت أعشاش الطيور
مسقوفةً بالورد ، والأعشاب ، والورق النضير
نبنى ، فتهدمها الرياحُ ، فلا نضجُّ ولا نثور
ونعود نضحك للعروج ، وللزَّنابقِ ، والغدير

ونخاطب الأصداء ، وهى ترِفُّ فى الوادى المنير
ونعيد أغنيـة السواقى ، وهى تلغو بالخرير
ونَظَلُّ نركض خلف أسراب الفَراش المستطير
ونمرُّ ما بين المروج الخضر ، فى سكر الشعور
نشدو ، ونرقصُ — كالبلابلِ — للحياة ، وللحبور
ونظل ننثرُ للفضـاء الرَّحْبِ ، والنهرِ الـكبير
ما فى فؤادَيْنا من الأحلام ، أو حُلْوِ الغرور
ونَشِيدُ فى الأُفق المخضَّب من أمانينا قصور
أزهى من الشفَقِ الجميل ، ورونقِ المَرْج الخضير
وأجلّ من هذا الوجود ، وكلِّ أمجاد الدهور
أبداً ، تُدَلِّلُنا الحياةُ بكلِّ أنواع السرور
وتبثُّ فينا من مراح الـكون ما يُغوى الوقور
فنسيرُ ، نَنْشُد لهوَنا المعبودَ — فى كل الأمور
ونظل نعبث بالجليل من الوجود ، وبالحقير :
بالسائل الأعمى ، وبالمعتوهِ ، والشيخِ الـكبير
بالقطة البيضاء ، بالشـاة الوديعة ، بالحمير
بالعشب ، بالفنَن المنوَّر ، بالسنابل ، بالسَّفير
بالرمْلِ ، بالصخر المحطَّم بالجداول ، بالغدير
واللهْوُ ، والعبَثُ البرىء ، والحلوُ ، مطمحُنا الأخير

ونظل نقفز ، أو نُثَرْثِرُ ، أو نغنى ، أو ندور
لا نسأم اللهوَ الجميلَ ، وليس يدركنا الفتور
فكأننا نحيا بأعصاب من المرَح المُثِير
وكأننا نمشى بأقدام مجنَّحة ، تطير
أيام كنا لُبَّ هذا الكون ، والباقى قشور
أيام تفرشُ سُبْلَنا الدنيا بأوراق الزهور
وتمرُّ أيامُ الحياة بنا ، كأسراب الطُّيور
بيضاء لاعبةً ، مُغرِّدةً مجنَّحةً بنور
وتُرفْرف الأفراحُ فوق رؤوسنا أنَّى نسير

* * *

آهٍ ! توارَى فَجْرِىَ القدُسىُّ فى ليل الدهور
وفنَى ، كما يفنَى النشيدُ الحلوُ فى صمت الأثير
أوّاهُ ، قد ضاعت على سعادةُ القلب الغرير
وبقيتُ فى وادى الزمان الجَهْمِ أدْأَبُ فى المسير
وأدوسُ أشواكَ الحياة بقلبىَ الدَّامى الكسير
وأرى الأباطيل الكثيرةَ ، والمآثم ، والشرور
وتصادُمَ الأهواءِ بالأهواءِ فى كل الأمور
ومَذَلَّةَ الحقِّ الضعيف ، وعزَّةَ الظلم القدير !
وأرى ابنَ آدمَ سائراً فى رحْلةِ العُمُرِ القصير

ما بينَ أهوال الوجودِ ، وَتحتَ أعباء الضَّمير
متسلِّقاً جَبَلَ الحياةِ الوعْرَ ، كالشَّيْخ الضَّرير
دامى الأكُفِّ ، مُمَزَّقَ الأقْدَامِ ، مُغْبَرَّ الشعور
مُترنِّح الخطواتِ ما بين المزالق والصُّخور
هالتْهُ أشْباحُ الظلامِ ، وراعهُ صوتُ القبور
ودوىُّ إعْصار الأسى ، والموت ، فى تلك الوُعورْ

* * *

ماذا جنيْتُ من الحياة ومن تجاريب الدُّهور
غيرَ الندامةِ والأسى واليأسِ والدمعِ الغزير ؟
هذا حَصادى من حقول العالَمِ الرَّحْبِ الخطير
هذا حَصادى كلُّهُ ، فى يقظة العَهْدِ الأخير

* * *

قد كنتُ فى زمنِ الطفولةِ ، والسذاجةِ ، والطهور
أحْيا كما تحيا البلابلُ ، والجداولُ ، والزُّهور
لا نحفل ، الدنيا تدور بأهلها ، أو لا تدور
واليومَ أحْيا مُرْهَقَ الأعْصاب ، مشبوبَ الشعور
مُتأجِّجَ الإحساسِ ، أحفلُ بالعظيم ، وبالحقير
تمشى على قلبى الحياةُ ، ويزحَفُ الكونُ الكبير
هذا مصيرى ، يا بنى الدنيا ، فما أشقى المصير !

السَّعَادَة

ترجو السعادةَ يا قلبي ولو وُجِدَتْ ... في الكونِ لم يشتعلْ حُزْنٌ ولا أَلَمُ

ولا استحالتْ حياةُ الناسِ أجمعُها ... وزُلزلتْ هاتِهِ الأكوانُ والنُّظمُ

فما السعادة في الدُّنيا سوى حُلُمٍ ... ناءٍ تُضَحِّي له أيَّامَها الأممُ

ناجتْ به الناسَ أوهامٌ مُعَرْبِدَةٌ ... لمَّا تغشَّتْهُمُ الأحلامُ والظُّلَمُ

فهَبَّ كلٌّ يُناديهِ ويَنْشُدُهُ ... كأنَّما الناسُ ما ناموا ولا حَلُمُوا[1]

* * *

خُذ الحياةَ كما جاءتك مبتسماً ... في كفِّها، الغارُ أو في كفِّها العدمُ

وارقصْ على الوَردِ والأشواكِ مُنْشِدًا ... غنَّتْ لك الطيرُ، أو غنَّت لك الرُّجُمُ

واعملْ كما تأمرُ الدُّنيا بلا مَضَضٍ ... والجِمْ شُعورَكَ فيها، إنها صَنَمُ

فمَنْ تألَّم لم تَرحَمْ مضاضتَهُ ... ومَنْ تجلَّدَ لم تَهزأْ به القِمَمُ

هذي سعادةُ دنيانا، فكن رَجُلاً ... إن شِئْتَها — أبدَ الآبادِ — يبتسمِ!

وإنْ أردتَ قضاءَ العيشِ في دَعَةٍ ... شِعْرِيَّةٍ لا يُنَغِّي صَفْوَها ندَمُ

فاترُكْ إلى الناسِ دُنياهم وضجَّتَهم ... وما بَنَوْا لنظامِ العيشِ أو رَسَمُوا

واجعلْ حياتك دَوْحًا مُزْهِرًا نَضِرًا ... في عزلةِ الغابِ يَنمو ثمَّ يَنْعَدِمُ

واجعلْ لياليكَ أحلامًا مُغرِّدةً ... إنَّ الحياةَ وما تَذْوِي به حُلُمُ!

---

(١) حلم: كان ذا حلم، أي ذا عقل.

من أغاني الرعاة

حل الشاعر صيفا بعين دراهم «من الشمال التونسي» مستشفيا . وهناك فوق الطبيعة العذراء الساحرة والغابات الملتفة الهائلة ، والجبال الشم المحللة بالسنديان قضى عهدا شعريا ، وادعا ، خالصا للشعر ، والسحر والأحلام . وفي القصيدة التالي صورة صغيرة من صور الحياة بين تلك الجبال ، والأودية والغابات :

أقبلَ الصُّبْحُ يُغنِّى للحياةِ الناعسَهْ
والرُّبى تحلمُ فى ظلِّ الغصونِ المائسَهْ
والصَّبا تُرقص أوراقَ الزهورِ اليابسَهْ
وتَهادَى النُّورُ فى تلك الفجاج الدامسَهْ

* * *

أقبَلَ الصبحُ جميلاً ، يملأُ الأفقَ بهاهْ
فتمطَّى الزهرُ ، والطيرُ ، وأمواجُ المياهْ
قد أفاقَ العالمُ الحىُّ ، وغنَّى للحياهْ
فأفيقى يا خِرافى ، وهلمِّى يا شِياهْ

* * *

واتبعينى يا شِياهى ، بين أسراب الطيورْ
واملأى الوادى ثُغاء ، ومراحا وحبورْ

واسمعى همس السواقى ، وانشقى عطرَ الزهورْ
وانظرى الوادى ، يغشّيه الضبابُ المستنيرْ

* * *

واقطفى من كلإِ الأرض ، ومَرعاها الجديدْ
واسمعى شبَّابتى تشدو ، بمعسول النشيدْ
نَغَمٌ يَصْعَدُ مِنْ قلبى ، كأنفاسِ الورودْ
ثم يَسْمُو طائرًا ، كالبلبلِ الشادى السعيدْ

* * *

وإذا جئْنا إلى الغابِ ، وغَطَّانا الشجرْ
فاقطفى ما شئتِ من عُشْبٍ ، وزَهْرٍ وثمرْ
أَرْضَعَتْهُ الشَّمْسُ بالضَّوءِ ، وغَذَّاهُ الثَّمَرْ
وارتَوَى من قَطَراتِ الطَّلِّ ، فى وَقْتِ السَّحَرْ

* * *

وامْرَحِى ما شئتِ فى الوديان ، أو فوقَ التلالْ
واربضى فى ظلها الوارف ، إن خِفتِ الكلالْ
وامْضغى الأعشابَ ، والأفكار فى صَمت الظلال
واسمعى الريحَ تُغَنِّى ، فى شماريخِ الجبالْ

* * *

إن فى الغاب أزاهيرًا ، وأعشابًا عِذابْ
يُنشِدُ النَّحْلُ حواليْها ، أهازيجًا طِرابْ
لم تُدَنِّسْ عِطرَها الطاهرَ أنفاسُ الذئابْ
لا ، ولا طَافَ بها الثعلبُ فى بعْضِ الصِّحابْ !

* * *

وشذًا حلوًا ، وسِحْرًا ، وسَلامًا ، وظِلالْ
ونَسيمًا ساحِرَ الخطوةِ ، موفورَ الدلالْ
وغصونًا يَرْقُصُ النورُ عليها ، والجمالْ
واخضرارًا أبديًّا ، ليس تَمْحُوه الليالْ

* * *

لن تَمَلِّى ، ياخرافى ، فى حمى الغاب الظليلْ
فزمانُ الغاب طفلٌ ، لاعبٌ ، عذبٌ ، جميل
وزمانُ الناس شيْخٌ ، عابسُ الوجه ، ثقيل
يتمشَّى فى ملالٍ ، فوق هاتيك السهول

* * *

لكِ فى الغابات مرعاكِ ، ومسعاكِ الجميلْ
ولىَ الإنشادُ ، والعزف إلى رقت الأصيل
فإذا طالتْ ظِلالُ الكلَلِ ، الغضُّ ، الضئيل
فلهمِّى ترجع المسعى إلى الحىِّ النبيل

أيها الحالمة بين العواصف

أنتِ كالزهرةِ الجميلةِ فى الغاب ، ولكن ما بين شوكٍ ، ودود
والرياحينُ تحسب الحسَكَ الشرِّيرَ ، والدودَ من صنوف الورود
فافهمى الناس . . ، إنما الناسُ خَلْقٌ مفسدٌ فى الوجود ، غيرُ رشيدِ
والسعيدُ السعيدُ من عاش كالليل غريبًا فى أهل هذا الوجود
ودعيهم يحيَوْنَ فى ظلمة الإثمِ وعيشى فى طهرك المحمود
كالملاك البريءِ ، كالوردة البيضاء ، كالموج ، فى الخضمِّ البعيد
كأغانى الطيور ، كالشفق الساحر كالكوكب البعيد السعيد
كثلوج الجبال ، يغمرُها النور وتسمو على غبار الصعيد
أنتِ تحت السماء روحٌ جميلٌ صاغه اللهُ من عبير الورود
وبنو الأرض كالقرود ، وما أضْـ ـيَعَ عِطرَ الورود بين القرود !
أنت من ريشة الإله ، فلا تُلْـ ـقِى بفنِّ السما لجهل العبيد
أنت لم تخلقى ليقْرُبَكِ الناسُ ولكن لتُعْبَدى من بعيد . . .

الأبد الصغير

يا قلبُ ! كم فيكَ من دُنيا محجَّبةٍ ... كأنها ، حين يبدو فجرُها « إرَمُ »[1]

يا قلبُ ! كمْ فيكَ من كونٍ ، قد انقدتْ ... فيه الشموسُ وعاشتْ فوقهُ الأممُ

يا قلبُ ! كمْ فيكَ من أفقٍ تنمُّقهُ ... كواكبٌ تتجلَّى ، ثمَّ تنعدِمُ

يا قلبُ ! كمْ فيكَ من قبرٍ ، قد انطفأتْ ... فيه الحياةُ ، وضجَّتْ تحتهُ الرِّمَمُ

يا قلبُ ! كمْ فيكَ من غابٍ ومن جَبَلٍ ... تَدوِي به الريحُ أو تسمو به القِممُ

يا قلبُ ! كمْ فيكَ من كهفٍ قد انبجست ... منه الجداولُ تجرى ما لها لُجُمُ

تمشى . . ، فتحملُ غُصنًا مُزْهِرًا نَضِرًا ... أوْ وَرْدَةً لمْ تُشَوِّهْ حُسنَها قَدَمُ

أو نَحلةً جرَّها التيَّارُ مُندَفِعًا ... إلى البحارِ ، تُغنى فوقها الدِّيَمُ

أو طائرًا ساحرًا مَيْتًا قد انفجرتْ ... فى مُقلتَيْهِ جراحٌ جمَّةٌ ودمُ

يا قلبُ ! إنك كونٌ ، مُدْهِشٌ عَجَبٌ ... إنْ يُسْأل الناسُ عن آفاقه يَجِمُوا

كأنك الأبَدُ المجهولُ . . ، قد عجزَتْ ... عنكَ النُّهَى ، واكفهرَّتْ حولك الظُّلَمُ

* * *

يا قلبُ ! كمْ من مسرَّاتٍ وأخيلةٍ ... ولذَّةٍ ، يتحامَى ظِلَّها الألمُ

غنَّتْ لفجرِكَ صوتًا حالمًا ، فرِحًا ... نَشْوانَ ثم توارتْ ، وانقضى النَّغمُ

---

(١) إرم : مدينة أسطورية أحاطتها الخرافات بجو خيالى مسحور ، فزعمت أنها بنيت على ضفة الجنة : أرضها من مسك وقصورها من خالص الذهب واللؤلؤ والمرجان ، وسماؤها من سحر مرصع بالأحلام . . ، وأنها لا زالت إلى يومنا هذا فى صحراء العرب ، ولكنها محجوبة لا يراها أحد . . .

وكم رأى لَيْلُك الأشباحَ هائمةً مذعورة تتهاوى حولها الرُّجُمُ
ورَفْرَفَ الألمُ الدَّامى ، بأجنحةٍ من اللهيب ، وأنَّ الحزنُ والنَّدَمُ
وكَمْ مشتْ فوقك الدُّنيا بأجمعها حتَّى توارتْ ، وسار الموتُ والعدمُ
وشيَّدَتْ حولك الأيامُ أبنيةً من الأناشيدِ تُبْنَى ، ثم تنهدِمُ

* * *

تمضى الحياةُ بماضيها ، وحاضرِها وتذْهَبُ الشمسُ والشُّطآنُ والقممُ
وأنتَ ، أنتَ الخِضمُّ الرَّحْبُ ، لا فَرَحٌ يَبْقَى على سطحكَ الطَّاغى ، ولا ألَمُ

* * *

يا قلبُ كم قد تمنَّيْتَ الحياةَ ، وكمْ رقَصتَها مَرَحًا ، ما مَسَّكَ السَّأمُ
وكمْ توشَّحْتَ من ليلٍ ، ومن شَفَقٍ ومن صباحٍ تُوَشِّى ذَيْلَهُ السُّدُمُ
وكم نسجْتَ من الأحلام أرديةً قد مزَّقَتْها الليالى ، وهْىَ تبْتَسِمُ
وكم ضَفَرْتَ أكاليلاً مُوَرَّدَةً طارتْ بها زَعْزَعٌ تدوِى وتَحْتَدِمُ
وكمْ رسمتَ رسومًا ، لا تُشابهها هذى العوالمُ ، والأحلامُ ، والنُّظُمُ
كأنها ظُلَلُ الفِرْدَوْسِ ، حافِلةً بالحورِ ، ثم تلاشَتْ ، واختفى الحُلُمُ

* * *

تبلُو الحيـــاةَ فتُبْلِيها وتَخلعها وتستجدُّ حياةً ، ما لها قِـدم
وأنتَ أنتَ : شبابٌ خالدٌ ، نضِرٌ مثل الطبيعة : لا شيبٌ ولا هرَم

صوت من السماء

فى الليل ناديتُ الكواكب ساخطاً متأجِّجَ الآلام والآراب :

« الحقلُ يملكه جبابرةُ الدجى والروض يسكنه بنو الأرباب »

« والنهر ، للغول المقدّسة التى لا ترتوى . . والغاب للحطّاب »

« وعرائس الغاب الجميلِ ، هزيلةٌ ظمآى لكل جَنًى ، وكل شراب »

« ما هذه الدنيا الكريهةُ ؟ ويلَها ! حَمَّتْ عليها لعنة الأحقاب ! »

« الكونُ مُصْغٍ ، يا كواكبُ ، خاشعٌ طال انتظارى ، فانطقى بجواب ! »

* * *

فسمعتُ صوتاً ساحراً ، متموِّجاً فوق المروج الفيحِ ، والأعشاب

وحفيفَ أجنحةٍ ترفرف فى الفضا وصدًى يَرِنُّ على سكون الغاب :

« الفجرُ يولَدُ باسماً ، مُتهلِّلاً فى الكونِ ، بين دُجنَّةٍ وضباب »

الصباح الجديد

أسكنى يا جِـرَاحْ واسكتى يا شجونْ
ماتَ عهد النُّواحْ وزمانُ الجنـــونْ
وأطلَّ الصَّـــباحْ مِنْ وراء القـرونْ

* * *

فى فِجاج الرَّدى قـد دفنتُ الألَمْ
ونثرتُ الدُّمـــوعْ لرياح العَـــدَمْ
واتّخـذتُ الحيـاهْ مِعـــزفًا للنغـمْ
أغـنّى عليـــه فى رحابِ الزمانْ

* * *

وأذبتُ الأسَـى فى جمال الوجودْ
ودحوت الفـــؤادْ واحةً للنشـــيدْ
والضـيا والظـلالْ والشَّـذَى والورودْ
والهوى والشـبابْ والمُنى والحنـــانْ

* * *

اسكنى يا جـراحْ واسكتى يا شـجونْ
مات عهـدُ النواحْ وزمانُ الجنـونْ
وأطلَّ الصـــباحْ من وراء القُـرونْ

* * *

فى فؤادى الرحيبْ معبـــدٌ للجمالْ
شـــيَّدتْه الحياهْ بالرُّؤَى ، والخيال
فتلوْتُ الصـــلاهْ فى خشوع الظلال . . .
وحرقتُ البَخور . . . وأضأتُ الشموعْ . . .

* * *

إنَّ سِحْرَ الحيـاهْ خـالدٌ لا يزولْ
فعـــلام الشكاهْ من ظلامٍ يحـول
ثمَّ يأتى الصـباح وتمُرُّ الفصول . . ؟
سوف يأتى ربيعْ إن تقضَّى ربيع

* * *

أُسكنى يا جـراحْ واسكتى يا شجونْ
مات عهدُ النواح وزمانُ الجـونـ
وأطلَّ الصـــباح من وراء القرونـ

* * *

من وراء الظلامْ وهديرِ الميـــاهْ
قد دعانى الصباح وربيعُ الحيـــاه
يا له من دُعَاء هزَّ قلبِى صداه !
لم يَعُدْ لى بَقاء فوق هـذى البقاع

* * *

الوَداعَ ! الوَداعَ ! يا جبـالَ الهمـومْ
يا ضبابَ الأسى ! يا فجاجَ الجحيم !
قد جـرى زوْرقى فى الخضمِّ العظيم . . .
ونشرتُ الشراعْ . . . فالوَداع ! الوَداع !

ذكرى صباح

قدّس الله ذكره من صباحٍ ساحرٍ ، في ظِلال غاب جميل
كان فيه النسيم ، يرقص سكراناً على الورد ، والنبات البليل
وضَباب الجبال ، ينساب في رفقٍ بديعٍ ، على مروج السهول
وأغاني الرعاةِ ، تخفقُ في الأغوارِ والسهلِ ، والربا ، والتلول
ورحابُ الفضاء ، تعبق بالألحان والعطرِ ، والضياء الجميل
والمَلاكُ الجبلُ ، ما بين ريحانٍ وعُشْبٍ ، وسِندِيانٍ ، ظَليل
يتغنّى مع العصافير ، في الغاب ويرنو إلى الضباب الكسول
وشعور الملاك ترقص بالأزهار والضوء ، والنسيم ، العليل

* * *

حُلمٌ ساحرٌ ، به حلمَ الغابُ فواهًا لحُلْمه المعسول !
مثل رؤيا تلوح للشاعر الفنّان في نشوة الخيال الجليل
قد تمنّيتُ سِحرَهُ في أناةٍ وحنانٍ ، ولَذةٍ ، وذهول
ثم ناديتُ ، حينما طفح السِّحر بأرجاء قلبيَ المتبول
يا شعورٌ تميد في الغاب بالرّ يحان ، والنور ، والنسيم البليل
كبّليني بهالة الحُصَلِ المُرْخَاةِ في فتنةِ الدَّلال المَلول
كبّلي يا سلاسلَ الحبِّ أفكا رِي ، وأحلامَ قلبيَ الضَّلِّيل

كبِّليني بكل ما فيكِ من عِطْرٍ ، وســـحرٍ مقدَّسٍ ، مجهول
كبِّليني ، فإنما يُصبح الفنّان حرًّا ، في مثل هذي الكبول

* * *

ليت شعري! كم بين أمواجِكِ السو دِ ، وطيَّاتِ ليلِكِ المسدول
من غرامٍ ، مُذَهَّبِ التاجِ ، ميْتٍ وفؤادٍ ، مُصَفَّدٍ ، مغلول
وزهورٍ من الأمانيِّ تَذوِي في شحوبٍ ، وخيبةٍ ، وخمول
أنتِ لا تعلمين . . ، والليلُ لا يعلم كم في ظلامِه من قَتيل
أنتِ أُرْجُوحَةُ النسيمِ فمِلي بالنسيمِ السعيدِ كلَّ مَيِل
والبِسِي للورودِ ، والظلِّ ، والأضواء في عُرْيِكِ ، الجميلِ ، النبيل
ودَعِي الشمسَ والسماء تُسَوِّي لكِ تاجًا ، من الضياء الجميل
ودعي مُزْهِرَ الغصونِ يُغَشِّيـ ـكِ بأوراق وَردِه المطلول

* * *

للشعاع الجميلِ أنتِ ، وللأنسا مِ ، والزهرِ ، فالعَبِي ، وأطيلي
ودعي للشقيِّ أشواقَه الظمأى وأوهامَ ذِهْنِه المعلول
يا عروسَ الجبالِ ، يا وردةَ الآ مالِ ، يا فتنةَ الوجودِ الجليل
ليتني كنتُ زهرةً ، تتثنَّى بين طيات شَعْرِكِ المصقول !
أو فَرَاشًا ، أحومُ حولكِ مسحورًا غريقًا ، في نشوتي ، وذهولي !
أو غصوناً ، أحنو عليكِ بأوراقي حُنُوَّ المُدَلَّهِ ، المتبول !
أو نسيماً ، أضمُّ صدرَكِ في رِفْقٍ ، إلى صدْرِيَ ، الخفوقِ ، النحيل
آهِ ! كم يُسْعِدُ الجمالُ ، ويُشْقِي من قلوبٍ شِعْرِيَّةٍ ، وعقول . . .

الرواية الغربية

ضحكنا على الماضى البعيد ، وفى غدٍ

ستجعلنا الأيامُ أضحوكةَ الآتى

وتلك هى الدنيا ، روايةُ ساخرٍ

عظيمٍ ، غريب الفنِّ ، مبدع آيات

يمثلها الأحياء فى مسرح الأسى

ووسط ضبابِ الهمِّ ، تمثيلَ أموات

ليشهدَ مِنْ خلف الضباب فصولَها

ويضحكَ منها — مَن يمثِّل ما يأتى

وكلٌّ يؤدِّى دَوْرَهُ . . ، وهو ضاحكٌ

على الغير ، مضحوكٌ على دوره العاتى

أغانى السكرى

قد سكرنا بحبنا واكتفينا يا مديرَ الكؤوسِ فاصرفْ كؤوسَكْ
واسكبِ الخمرَ للعصافيرِ والنحلِ وخلِّ الثرى يَضُمُّ عروسَكْ

* * *

مالنا والكؤوس ، نطلب منها نشوةً والغرامُ سحرٌ وسُكرُ !
خَلِّنا منك ، فالربيع لنا ساقٍ وهذا الفضاء كأسٌ وخمر !

* * *

نحن نحيا كالطير ، فى الأفق الساجى وكالنحل ، فوق غضِّ الزهور
لا ترى غيرَ فتنةِ العالم الحىِّ وأحلامِ قلبها المسحورِ . . .

* * *

نحن نلهو تحتَ الظلالِ ، كطفلين سعيدين ، فى غُرورِ الطفولة
وعلى الصخرةِ الجميلةِ فى الوادى وبين المخاوفِ المجهولة

* * *

نحن نغدو بين المروج ونُمسى ونغنّى مع النسيم المغنّى
ونناجى روحَ الطبيعةِ فى الكون ونُصغى لقلبها المتغنّى

* * *

نحن مثل الربيع : نمشى على أرضٍ من الزهر ، والرؤى ، والخيال
فوقها يرقص الغرام ، ويلهو ويغنّى ، فى نشوةٍ ودلالِ

* * *

نحن نحيا فى جنة من جِنان السحر فى عالمٍ بعيدٍ ... ، بعيدِ ... ،
نحن فى عُشِّـــنا المُوَرَّدِ ، نتلو سُـــوَرَ الحُبِّ للشَّبابِ السعيدِ

* * *

قد تركنا الوجودَ للناس ، فليقـ ـضُوا عليه الحياةَ كيف أرادوا
وذهبنا بلبِّـــه ، وهو روحٌ وتركنا القشـــورَ ، وهى جَمادُ

* * *

قد سكرنا بحبنا ، واكتفينا طفَحَ الكأسُ ، فاذهبوا يا سُقاةُ
نحن نحيا فلا نريد مزيدًا حسبنا ما منحتِنا يا حيـــاةُ

* * *

حســـبنا زهرُنا الذى نَتَنَشَّى حسْبنا كأسُنا التى نترشَّـــفْ
إنَّ فى ثغرنا رحيقًا سماويًّا وفى قلبنا ربيعًا مفـــوَّفْ

* * *

أيها الدهـــر ، أيها الزمن الجارى إلى غير وُجهةٍ وقـــرار !
أيها الكون ! أيها الفلك الدَّوَّار بالفجـــر ، والدجى ، والنهار !

* * *

أيها الموت ! أيها القدر الأعمى ! قِفُوا حيث أنتمُ ! أو فســـيروا
ودعونا هنا : نُغَنِّى لنا الأحلامُ والحبُّ ، والوجـودُ ، الكبيرُ

* * *

وإذا ما أَبَيْتُمُ ، فاحمـــلونا ولهيبُ الغرام فى شـــفتينا
وزهـــورُ الحياة ، تعبقُ بالعطرِ وبالسحرِ ، والصِّـــبا فى يدينا

إرادة الحياة

إذا الشعبُ يوما أراد الحياة ... فلا بدَّ أن يستجيب القدرْ
ولا بد لليل أن ينجلى ... ولا بدَّ للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقْه شوقُ الحياة ... تبخَّرَ فى جوِّها ، واندثر
فويل لمن لم تَشُقْهُ الحياةُ ... من صفعة العدَم المنتصر
كذلك قالت لىَ الكائناتُ ... وحدَّثنى روحُها المستتر

* * *

ودمدمت الرِّيحُ بين الفِجاج ... وفوق الجبال وتحت الشجر :
« إذا ما طمحتُ إلى غايةٍ ... ركبتُ المُنى ، ونسِيتُ الحذر »
« ولم أتجنَّبْ وعورَ الشِّعاب ... ولا كُبَّةَ اللَّهَب المستعر »
« ومن لا يحبُّ صعودَ الجبال ... يعشْ أبدَ الدهر بين الحُفَر »
فعجَّتْ بقلبى دماء الشباب ... وضجَّت بصدرِى رياحٌ أخَر ...
وأطرقتُ ، أصغى لقصف الرعود ... وعزف الرياح ، ووقع المطر

* * *

وقالت لىَ الأرض — لما سألت : « أيا أمُّ هل تكرهين البشر؟ » :
« أباركُ فى الناس أهلَ الطموح ومن يستلذُّ ركوبَ الخطر »
« وألعنُ من لا يماشى الزمانَ ، ويقنع بالعيْش عيشَ الحجَر »

« هو الكون حيٌّ ، يحبُّ الحياة ويحتقر المَيْتَ ، مهما كبُر »
« فلا الأفقُ يحضُن ميْتَ الطيورِ ، ولا النحلُ يلثِم ميْتَ الزهر »
« ولولا أمُومةُ قلبِ الرَّؤومُ لَمَا ضمَّتْ الميْتَ تلكَ الحُفَر »
« فويلٌ لمن لم تشُقه الحياة ، مِنْ لعنة العـــدم المنتصرا »

* * *

وفى ليـــلة من ليالى الخريف مثقلةٍ بالأسى والضجر سكوت بها من ضياء النجوم وغنَّيْتُ للحُزْن حتى سكر سألتُ الدجى : هل تُعيد الحياةُ-لمن أذبلتهـ ربيعَ العمر ؟ فلم تتكلَّم شفاه الظلام ولم تترنَّمْ عذارى السحَر وقال لىَ الغابُ فى رقةٍ مُحَبَّبَةٍ مثل خفْق الوتر :
« يجىء الشتاء ، شتاء الضباب ، شتاء الثلوج ، شتاء المطر »
« فينطفىء السِحرُ ، سحر الغصون ، وسحرُ الزهور ، وسحر الثمر »
« وسحر السماء ، الشجىُّ ، الوديعُ ، وسحرُ المروج ، الشهىُّ ، العطِر »
« وتهوى الغصـــونُ ، وأوراقُها وأزهارُ عهدٍ حبيبٍ نضِر »
« وتلهو بهـا الريح فى كل وادٍ ويدفنها السيلُ ، أنَّى عبر »
« ويفنى الجميعُ ، كحُلْمٍ بديع ، تألَّق فى مهجةٍ واندثر »
« وتبقى البـــذورُ ، التى حُمِّلَتْ ذخيرةَ عُمْرٍ جميلٍ ، غَبَر »
« وذكرى فصولٍ ، ورؤيا حياةٍ ، وأشباحَ دنيا ، تلاشتْ زُمَر »
« معانقةً — وهى تحت الضباب ، وتحت الثلوج ، وتحت المَدَر — »

« لِطَيْفِ الحياة الذى لا يُمَلُّ ، وقلبِ الربيع الشذىِّ الخضِر »
« وحالمةً بأغانى الطيـــــور ، وعِطْرِ الزهور ، وطعمِ الثمر »

* * *

« ويمشى الزمان ، فتنمو صروف ، وتذرى صروف ، وتحيا أخَر »
« وتُصبِحُ أحلامها يقْظةً ، مُوَشَّحةً بغموض السَّحَر »
« تُسائل : أين ضباب الصباح ؟ وسِحْرُ المساء ؟ وضوء القمر ؟ »
« وأسرابُ ذاك الفَراشِ الأنيقِ ؟ ونحلٌ يغنِّى ، وغيمٌ يمر ؟ »
« وأين الأشعَّةُ والكائناتُ ؟ وأين الحياة التى أنتظر ؟ »
« ظمِئتُ إلى النور ، فوق الغصون ! ظمِئت إلى الظل تحت الشجر! »
« ظمِئتُ إلى النبْع ، بين المروج ، يغنِّى ، ويرقص فوق الزَّهَر ! »
« ظمِئتُ إلى نَغَمات الطيور ، وهَمْسِ النَّسيمِ ، ولحن المطر ! »
« ظمئتُ إلى الكون ! أين الوجودُ وأنَّى أرى العالَمَ المنتظر ؟ »
« هو الكونُ ، خلف سبات الجمود ، وفى أُفُقِ اليقظات الكُبَر »

* * *

« وما هو إلا كخفق الجناح حتى نما شوقُها وانتصر »
« فصَدَّعت الأرضَ من فوقها ، وأبْصرت الكونَ عذبَ الصُّوَر »
« وجاء الربيعُ ، بأنغامه . وأحـــــلامه ، وصِبَاه العطِر »
« وقبَّلها قُبلاً فى الشفاه ، تعيد الشبابَ الذى قد غبَر »
« وقال لها : قد مُنِحتِ الحياةَ ، وخُلِّدْتِ فى نسلِك المُدَّخَر »

« وبارَكَكِ النُّورُ ، فاستقبلى شبابَ الحياة وخِصْبَ العُمُر »

« ومن تعبد النورَ أحـلامُه ، يُبارِكُهُ النُّورُ أنّى ظهر »

« إليكِ الفضاءَ ، إليكِ الضياء ، إليكِ الثرى ، الحالمَ ، المزدهر ! »

« إليكِ الجمالَ الذى لا يَبيدُ ! إليكِ الوجودَ ، الرحيبَ ، النضر ! »

« فميدى — كما شئتِ — فوق الحقول ، بحلو الثمار وغضِّ الزَّهَر »

« وناجى النسيمَ ، وناجى الغيومَ وناجى النجومَ ، وناجى القمر »

« وناجى الحياةَ وأشواقَها ، وفتنةَ هـــذا الوجود الأغر »

* * *

« وشفَّ الدجى عن جمالٍ عميقٍ ، يشُبُّ الخيالَ ، ويُذكى الفِكَر »

« ومُدَّ على الكون سِحرٌ غريبٌ ، يُصَرِّفه ساحرٌ مقتدر »

« وضاءت شموعُ النجوم الوِضاء ، وضاع البَخُورُ ، بخور الزَّهَر »

« ورفرف روحٌ ، غريبُ الجمال ، بأجنحةٍ من ضياء القمر »

« ورنَّ نشيدُ الحياة المقدَّسُ فى هيكلٍ ، حالمٍ ، قد سُحِر »

« وأُعْلِنَ فى الكون : أنَّ الطموحَ لهيبُ الحياةِ ، ورُوحُ الظفَر »

* * *

« إذا طمحتْ للحياة النفوس فلا بدَّ أنْ يستجيبَ القدر ! »

تحت الغصون

ها هنا ، فى خمائل الغاب ، تحت الزان ... والسَّـــندِيان ، والزيتـــون
أنتِ أشهى من الحيـاة وأبهى ... من جمال الطبيعـة الميمون
ما أرقَّ الشبابَ ، فى جسمكِ الغضِّ ... وفى جيـدكِ ، البديعِ ، الثمين !
وأدقَّ الجمالَ فى طرفكِ الساهى ، ... وفى ثغرى الجميـل ، الحزين !
وألذَّ الحيـــاةَ حين تغنين ... فأُصـغى لصـــوتكِ المحزون
وأرى رُوحكِ الجميـــلةَ عِطراً ... ضايعاً فى حلاوة التلحين !
قد تغنيتِ منذُ حينٍ بصوتٍ ... ناعمٍ ، حالمٍ ، شـجىٍّ حنون
نَغَمًا كالحيـــاة عذباً عميقاً ... فى حنـــانٍ ، ورقةٍ ، وحنين
فإذا الـكون قطعـةٌ من نشيدٍ ... علويٍّ ، منغمٍ ، موزون
فلِمن كنتِ تُنشدين ؟ فقالتْ : ... « للضياء البَنفسجىِّ الحزين »
« للضَّـباب المورَّد ، المتلاشى ... كخيالات حالمٍ ، مفتـــون »
« للمساء المطلِّ للشَّفَق الساجى ، ... لسحر الأسى ، وسحر السكون »
« للعبير الذى يرفرف فى الأفق ... ويفنى ، مثل المُنى ، فى سكون »
« للأغانى التى يرددها الراعى ... بمزماره الصـغير ، الأمين »
« للربيع الذى يؤجِّج فى الدنيا ... حياةَ الهوى ، وروحَ الحنين »
« ويوشِّى الوجودَ بالسحر ، والأحلام ... والزهر ، والشذى ، واللُّحون »

« للحياة التى تغنى حوالَىَّ ، على السهل ، والربا ، والحزون »
« للينابيع ، للعصافير ، للظل لهذا الثرى ، لتلك الغصون »
« للنسيم الذى يضمِّخ أحلامى بعطر الأقاح والليمون »
« للجمال الذى يفيض على الدنيا لأشواق قلبىَ المشحون »
« للزمان الذى يوشِّح أيامى بضوء المُنى وظل الشجون »
« للشباب السكران ، للأمل المعبود ، لليأس ، للأسى ، للمَنون »

* * *

فتنهدتُ ، ثم قلتُ : « وقلبى مَنْ يغنيه ؟ مَنْ يُبيد شجونى ؟ »
قالت : « الحبُّ » ثم غنّتْ لقلبى قُبَلاً عبقرية التلحين
قبلاً ، علّمت فؤادى الأغانى ، وأنارتْ له ظلام السنين
قبلاً ، ترقص السعادةُ ، والحبُّ على لحنها العميقِ الرصين

* * *

. . وأفقنا ، فقلت كالحالم المسحور : « قولى ، تكلمى ، خبرينى »
« أىُّ دنيا مسحورة ، أى رؤيا طالعَتْنى فى ضوء هذى العيون : »
« زمرٌ من ملائك الملأ الأعلى يغنون فى حُنُوٍّ حَنون »
« وصبايا رواقصٌ ، يتراشقن بزهر التُّفاح والياسمين »
« فى فضاء ، مُوَرَّدٍ ، حالمٍ ساهٍ أطافت به عذارى الفُنون »
« وجحيمٍ تَوَهُّجٌ تحت فراديس كأحلام شاعر مجنون ؟ »
« أىُّ خمرٍ موَّجَجٍ ولهيبٍ مُسكرٍ ؟ أى نشوة ، وجنون ؟ »

« أى خمرٍ رشفتُ ، بل أى نارٍ فى شفاهٍ ، بديعةِ التكوين »
« وردّتها الحياةُ فى لَهَبِ السِّحر ، ونُور الهوى ، وظلِّ الشجون »
« أى إثمٍ مقدّسٍ ، قد لبسنا بُرْدَهُ فى مسائنا الميمون ؟ »
فبَدَا طيفُ بسمةٍ ، ساحرٌ ، عذبٌ ، على ثغرها ، قوىُّ الفتون
وأجابتْ — وكلها فتنةٌ تُغوى ، وتُغرى بالحب ، بل بالجنون — :
« أبداً ! أنتَ حالمٌ ، فاسأل الليلَ ، فعند الظلام علمُ اليقين . . . »

* * *

وسكتنا ، وغرّدَ الحُبُّ فى الغاب ، فأصغى حتى حفيفُ الغصون
وبنى الليلُ والرَّبيعُ حوالينا من السِّحْر والرُّؤَى والسكون
معبداً للجمال ، والحُبِّ شِعرًيا ، مَشيداً على فِجاج السنين
تحته يزْخرُ الزَّمانُ ، ويجرى صامتاً ، فى مَسيله المحزون
وتمرُّ الأيامُ ، والحزنُ ، والموتُ ، بعيداً عن ظله المأمون
معبداً ، ساحراً ، مباخرُهُ الزَّهرُ ، على الصخْرِ ، والثرى ، والغضون
كلُّ زهرٍ يضوع منه أَريجٌ من بَخور الربيع ، جمُّ الفتون
ونجومُ السماء فيه شموعٌ أوْقدَتْها للحُبِّ رُوحُ القرون
ومضتْ نسمةٌ تُوَسْوِسُ للغاب ، وتشدُو فى عُمْقِ ذاك السكون
وطغى السِّحر ، والغرام بقلبى فتوسَّتْ ضارعًا بجفونى :
« طهِّرِى يا شقيقةَ الروحِ ثغْرى بلهيب الحياة ، بل قبِّلينى »
« إن نارَ الحياةِ ، والكوثرَ المنشودَ ، فى ثغرِكِ الشهىِّ ، الحزين »

« فهو كأسٌ سحرية ، لرحيق الخلد قد صاغها إلٰه الفنـــون »

« قبِّليني ، وأسكِرى ثغرىَ الصادى وقلبى ، وفِتنتى ، وجنونى »

« علّنى أستطيع أن أتغنى لجمال الدجى بوحى العيـون »

« آهِ ! ما أجمل الظلام ! وأقوى وحيه فى فؤادى المفتـون ! »

« أنظرى الليل فهو فى حلّة الأحلام يمشى على الذرى والحزون »

« واسمعى الغاب ، فهو قيثارةُ الكون تغـنى لحبنا الميمـــون »

إن سِحر الضباب ، والليل ، والغاب بعيـد المدى ، قويُّ الفتون

« وجمال الظلام يعبق بالأحلام والحب . . . فابسمى ، والمْينى . . . »

. . . . . .

« آهِ ! ما أعذب الغرام ! وأحلى رَنَّةَ اللثم فى خشوع السكون ! »

* * *

. . . وسكرنا هناك . . . فى عالم الأحلام تحت السماء ، تحت الغصون . . .

وتوارى الوجود عنا بما فيه . . . وغبنا فى عالم مفتـــون . . .

ونسينا الحياة ، والموت ، والكون وما فيـــه من مُنًى ومَنون

إلى الشعب

أين يا شعبُ ، قلبُكَ الخافقُ الحسَّاسُ؟ أين الطموحُ ، والأحـــلامُ ؟
أين يا شعبُ ، روحُك الشاعرُ الفنَّانُ؟ أين ، الخيـــال والإلهامُ ؟
أين يا شعب ، فنُّك ، الساحرُ ، الخلاَّقُ؟ أين الرســـومُ والأنغام ؟
إنَّ يمَّ الحياة يدوى حوالَيْكَ فأين المُغامِرُ ، المقـــدام
أين عـــزم الحياة ؟ لا شيءَ إلاَّ الموتُ ، والصَّمتُ ، والأسى ، والظلام
عُمُرٌ ميِّتٌ ، وقلبٌ خَوَاءٌ ، ودمٌ ، لا تثـــيرهُ الآلام
وحياةٌ ، تنامُ فى ظلمة الوادى وتنـــمو من فوقها الأوهام
أىُّ عيش هذا ، وأىُّ حياة ؟! (رُبَّ عَيْشٍ أخَفُّ منـــه الحِمَام)

* * *

قد مشتْ حولَك الفصول وغَنَّتْكَ فـــلم تبتهجْ ، ولم تترنَّمْ
ودَوَتْ فوقك العواصفُ والأنواء حَتَّى أوْشَكْتَ أن تتحطَّم
وأطافَتْ بكَ الوحوشُ وناشتك فلم تضطرب ، ولم تتـــألَّم
يا إلهى ! أما تحسُّ ؟ أما تشدو ؟ أما تشتكى ؟ أما تتكلَّمْ ؟
مَلَّ نهرُ الزَّمانِ أيامَك الموتَى وأنقاضَ عُمْـــرِكَ المتهدِّمْ
أنتَ لا ميِّت فيبلَى ، ولا حىٌّ فيمشى ، بل كائنٌ ، ليس يُفهَمْ

أبدًا يرمق الفـــراغَ بطرفٍ جامدٍ ، لا يرى العوالِمَ ، مُظْلِمْ
أيُّ سِحْرٍ دهاكَ ! هل أنتَ مسحورٌ شـــقيٌّ ؟ أو ماردٌ ، يتهكَّمْ ؟

* * *

آهِ ! بل أنت فى الشعوب عجوزٌ ، فيلسوفٌ ، مُحَطَّمٌ فى إهابهْ
ماتَ شوقُ الشباب فى قلبه الذاوى ، وعزمُ الحيـــاة فى أعصابهْ
فمضى ، ينشد السلامَ . . ، بعيدًا . . . فى « قبور الزمان » خلفَ هضابه
وهناكَ . . اصطفى البقاءَ مع الأموات ، فى « قبر أمسه » غيرَ آبهْ . . .
وارتضى القبرَ مسكنًا ، تتلاشى فيه أيامُ عُمْـــرِهِ المُتشابهْ
وتناسى الحياةَ ، والزَّمَنَ الذَّاوِى وما كانَ مِنْ قـــديمِ رِغابهْ
فالْزَمِ القبرَ . . . فهو بيتٌ ، شبيهٌ بكَ فى صمت قلبهِ ، وخرابهْ
واعْبُدِ «الأمسَ» ، وادَّكِرْ صُوَرَ الماضى فدُنْيَا العجوزِ ذِكرى شبابهْ . . .

* * *

وإذا مَرَّت الحياةُ حواليْكَ جميلاً ، كالزهر غضًّا صِباها
تتغنَّى الحياة بالشـوق والعزم فيُحْيِى قلبَ الجماد غِناها
والربيعُ الجميلُ يرقص فوق الورد ، والعشب ، مُنْشِدًا ، تيَّاها
ومشى النـاسُ خلفها ، يتَمَلَّوْنَ جمالَ الوجـــود فى مَرْآها
فاحْذَرِ السِّحْرَ ! أيها الناسكُ ، القِدِّيسُ ، إنَّ الحيـاةَ يُغوى بَهاها
والربيعُ الفَنَّانُ شاعِرُها المفتونُ يُغْرِى بحبهـــا وهواها
وتَمَلَّ الجمالَ فى رِمَمِ الموتى . . ! بعيدًا عن سحرها وصـداها

وتَغَزَّلْ بسحر أيامِكَ الأولى ، وخَلِّ الحيـــاةَ تخطو خطاها

* * *

وإذا هيَّت الطيورُ مع الفجر ، تُغنِّى بين المروج الجميلهْ
وتُحَيِّى الحيـاةَ ، والعالَمَ الحىَّ ، بصوتِ المحبَّةِ المسـتهلهْ
والفراشُ الجميلُ رَفْرَفَ فى الروض ، يناجى زهـورَهُ المطلولهْ
وأفاقَ الوجودُ لِلْعمـل المُجْدِى وللسَّعىِ ، وللمعـانى الجليلهْ
ومشى الناس فى الشِّعاب ، وفى الغاب ، وفوقَ المسالكِ المجهـولهْ
ينشدون الجمالَ ، والنُّورَ ، والأفراحَ والمجدَ ، والحيـاةَ النبيلهْ
فاغضُضِ الطرفَ فى الظلامِ ! وحاذِرْ فِتْنَةَ النُّورِ . . ! فهْىَ رُؤْيا مَهولَهْ ...
وصباحُ الحياةِ لا يُوقِظُ المَوْتَى ولا يرحمُ الجفونَ الكليلهْ

* * *

كلُّ شىءٍ يُعاطِفُ العالَمَ الحىَّ ، ويُذكِى حيـاتَه ، ويُفيدُهْ
والذى لا يُجاوِبُ الكونَ بالإحساس عِبْءٌ على الوجود ، وُجودُهْ
كلُّ شىءٍ يُسايِرُ الزمنَ الماشى بعزمٍ ، حتى الترابُ ، ودودُهْ
كلُّ شىءٍ — إلاَّكَ — حىٌّ ، عَطوفٌ يُؤْنِسُ الكونَ شَوْقُه ، ونَشيدُهْ
فلِماذا تعيش فى الكون يا صاحِ ! وما فيكَ من جنًى يستفيدُهْ
لستَ يا شيخُ للحياةِ بأهْلٍ أنت داءٌ يُبيدُها وتُبيدُهْ
أنت قَفْرٌ ، جهنَّمىٌّ لَعِينٌ ، مُظلمٌ ، قاحلٌ ، مُريعٌ جمودُهْ

لا تُرِفُّ الحياةُ فيه ، فلا طيرٌ يُغنِّى ، ولا سحابٌ يَجُودُهْ

* * *

أنتَ يا كاهنَ الظلامِ حياةٌ تعبد الموتَ . . ! أنت روحٌ شقيُّ
كافرٌ بالحياةِ والنورِ . . ، لا يُصغى إلى الكون قلبُه الحَجَرِيُّ
أنتَ قلبٌ ، لا شوقَ فيه ولا عزمَ وهذا داء الحياةِ الدَّوِيُّ
أنتَ دنيا ، يُظِلُّها أُفُقُ الماضى وليلُ الكآبةِ الأبديُّ
مات فيها الزمانُ ، والكونُ إلاَّ أمسُها الغابرُ ، القديمُ ، القَصِيُّ
والشقيُّ الشقيُّ فى الأرض قلبٌ يَوْمُهُ مَيِّتٌ ، وماضيه حيُّ
أنتَ لاشىءَ فى الوجودِ ، فغادِرْهُ إلى الموت فهْوَ عنك غَنِيّ

الناس

ما قدَّسَ المَثَلَ الأعلى وجمَّلَه فى أعيُنِ الناس إلّا أنه حلم !
ولو مشى فيهم حيًّا لحطَّمه قومٌ ، وقالوا بخبثٍ : « إنه صنمُ » !
لا يعبد الناسُ إلا كلَّ منعدِمٍ مُمَنَّعٍ ، ولمَنْ حابَاهُمُ العدم !
حتى العباقرةُ الأفذاذ ، حبَّهم يلقى الشقاء ، وتَلقَى مجدَها الرِّمَمُ !

* * *

الناس لا ينصفون الحيَّ بينهمُ حتَّى إذا ما توارى عنهمُ ندموا !
الويلُ للناس من أهوائهم ! أبدًا يمشى الزمانُ وريح الشر تحتدم

نشيد الجبار

أو هكذا غنى پرومثيوس

سأعيش رغمَ الداءِ والأعـــداءِ كالنَّسرِ فوق القِمَّـــةِ الشماء
أرنو إلى الشمس المضيئة . . ، هازئاً بالسُّحْب ، والأمطار ، والأنواء . . .
لا أرمقُ الظلَّ الكئيبَ . . ، ولا أرى ما فى قرار الهُوَّةِ السـوداء . . .
وأسيرُ فى دنيا المشاعر ، حالماً ، غرِدًا — وتلك سعادة الشـعراء —
أُصغِي لموســيقى الحياة ، ووحْيِها وأذيب روحَ الكون فى إنشائى
وأُصيخُ للصـوت الإلٰهىِّ ، الذى يُحيِي بقلبِي ميِّتَ الأصـداء

* * *

وأقول للقـــدر الذى لا ينثنى عن حـرب آمالى بكل بلاء :
« لا يطفئُ اللهبَ المؤجَّج فى دمى موجُ الأسى ، وعواصف الأرزاء »
« فاهدم فؤادى ما استطعتَ ، فإنه سيكون مثل الصـخرة الصماء »
« لا يعرف الشكوى الذليلةَ والبكا ، وضَراعَـةَ الأطفـال والضعفـاء »
« ويعيش جبَّارًا ، يحدِّق دائماً بالفجر . . ، بالفجر الجميل ، الدانى »
« واملأ طريقى بالمخاوفِ ، والدجى ، وزوابعِ الأشـواك ، والحصـباء »
« وانشر عليه الرُّعبَ ، وانثر فوقه رُجمَ الرّدى ، وصواعقَ البأساء »

« سأظل أمشى رغم ذلك ، عازفاً قيثـــارتى ، مترنّماً بغنائى »
« أمشى بروح حالمٍ ، مُتوَهِّجٍ فى ظلمـــة الآلام والأدواء »
« النـور فى قلبى وبين جوانحى فعلام أخشى السير فى الظلماء ! »
إنى أنا النايُ الذى لا تنتهى أنغامه ، ما دام فى الأحيـاء »
« وأنا الخضمُّ الرحْبُ ، ليس تزيده إلا حياةً ســطوةُ الأنواء »
« أمّا إذا خمدت حياتى ، وانقضى عُمرى ، وأخرست المنيّةُ نائى »
« وخبا لهيبُ الكون فى قلبى الذى قد عاش مثلَ الشـــعلة الحمراء »
« فأنا السـعيد بأننى مُتحوِّلٌ عن عالم الآثام ، والبغضـــاء »
« لأذوبَ فى فجر الجمال السرمدىِّ وأرتوى من مَنْهَلِ الأضواء »

* * *

وأقولُ للجمع الذين تجشـــموا هدمِى ، وودُّوا لو يخـرُّ بنـائى
ورأوْا على الأشـواك ظلّى هامِدًا فتخيّلُوا أنِّى قضـــيْتُ ذَمامى
وغدوْا يَشبُّونَ اللهيبَ بكلِّ ما وجدوا . . ، ليشوُوا فوقه أشلائى
ومضَوْا يمدُّون الخوان ، ليأكلوا لحمى ، ويرتشـفوا عليه دمائى
إنى أقول لهم — ووجهى مشرقٌ وعلى شفـاهى بسمةُ استهزاء — :
« إن المعـاول لا تهـد مناكبى والنـار لا تأتى على أعضـائى »
« فارموا إلى النار الحشائش ..، والعبوا يا معشر الأطفال تحت سمـائى »
« وإذا تمرّدت العواصف ، وانتشى بالهول قلب القبـــة الزرقاء »
« ورأيتمـونى طائرًا ، مترنّمـاً فوق الزوابع ، فى المضاء النائى »

« فارموا على ظلى الحجارة . ، واختفوا خوْفَ الرياحِ الهُوجِ والأنواء . . . »
«وهناك ، فى أمْنِ البيوت ، تطارحوا غَثَّ الحديث ، وميِّتَ الآراء »
« وترنَّموا — ما شئتمُ — بشتائمى وتجاهروا — ما شئتمُ — بعدائى »
« أما أنا فأجيبكم من فوقكم والشمسُ والشفقُ الجميل إزائى : »
« من جاش بالوحىِ المقدَّسِ قلبُه لم يحتفِلْ بحجـــارة الفلتـاء »

زوبعة فى ظلام

لو كانت الأيام فى قبضتى أذريتها للريح ، مثل الرمال
وقلت : « ياريح ، بها فاذهبى وبدِّديها فى سحيق الجبال »
« بل فى فجاج الموت .. فى عالَمٍ لا يرقص النور به والظِّلال ...»

* * *

لو كان هذا الـكون فى قبضتى ألقيْتُه فى النـار ، نار الجحيم
ما هذه الدنيا ، وهذا الورى وذلك الأفق ، وتلك النجوم ؟ !
النـــار أوْلى بعبيد الأسى ، ومسرح الموت ، وعُشِّ الهموم

* * *

يا أيها المـاضى الذى قد قضى وضمَّهُ الموتُ ، وليلُ الأبدْ !
يا حاضر الناس الذى لم يَزُل ! يا أيها الآتى الذى لم يلد !
سخافةٌ دنياكم هـــذه تائهةٌ فى ظلمة لا تُحَد . . !

الاعتراف

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبى — ومشاعرى عمياء بالأحزان
أنِّى سأظمأ للحياة ، وأحتسى من نهرها المتوهِّج النشوان
وأعـودُ للدنيا بقلبٍ خافقٍ للحبِّ ، والأفراح ، والألحان
ولكل ما فى الكون من صور المنى وغرائب الأهواء والأشجان
حتى تحركت السنون ، وأقبلت فتن الحيـــاة بسحرها الفنَّان
فإذا أنا ما زلت طفلاً ، مولَعاً بتعقُّب الأضـواء والألوان
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضُها ضربٌ من البهتان والهـذيان
إن ابن آدمَ فى قرارة نفســه عبـدُ الحياة الصادقُ الإيمـانَ

حرم الأمومة

الأمُّ تلثُم طفلَها ، وتضـمُّه حرَمٌ ، سماويُّ الجمال ، مقدَّسُ
تتأله الأفكارُ . وفى جوارَه وتعود طاهرةً هنـاك الأنفُس
حرَمُ الحياة بطهرها وحنانها هل فوقه حرَمٌ أجلُّ وأقدس ؟
بوركتَ يا حرَمَ الأمومةِ والصِّبا كم فيك تكتمل الحياةُ وتقدُس !

قلب الشاعر

كل ما هبَّ ، وما دبَّ ، وما نام ، أو حام على هذا الوجود
من طيورٍ ، وزهورٍ ، وشذى ويناييعَ ، وأغصان تميد
وبحارٍ ، وكهوفٍ ، وذُرى وبراكينَ ، ووديانٍ ، وبيد
وضياء ، وظلالٍ ، ودجى ، وفصول ، وغيوم ، ورعود
وثلوج ، وضباب عابرٍ ، وأعاصيرَ ، وأمطارٍ تجود
وتعاليمَ ، ودين ، ورؤى ، وأحاسيس ، وصمتٍ ، ونشيد
كلُّها تحيا بقلبي ، حُرَّةً غضة السحر ، كأطفال الخلود

* * *

ها هنا ، في قلبيَ الرحْبِ ، العميق يرقص الموتُ وأطيافُ الوجود
ها هنا ، تعصف أهوال الدجى ها هنا ، تخفق أحلام الورود
ها هنا ، تهتف أصداء الفنا ها هنا ، تُعزَفُ ألحانُ الخلود
ها هنا ، تمشي الأماني ، والهوى ، والأسى ، في موكبٍ فَخْمِ النشيد
ها هنا الفجر الذي لا ينتهي ها هنا الليل الذي ليس يبيد
ها هنا ، ألفُ خِضَمٍّ ، ثائرٍ خالدِ الثورةِ ، مجهولِ الحدود
ها هنا ، في كلِّ آنٍ تمَّحي صُوَرُ الدنيا ، وتبدو من جديد

الدنيا الميتة

إنى أرى . . ، فأرى جموعًا جَمَّةً ... لكنها تحيـــا بلا ألباب

يدوى حوالَيْها الزمان ، كأنما ... يدوى حوالَىْ جنـدل وتراب

وإذا استجابوا للزمان تناكروا ... وتراشقوا بالشوك والأحصاب

وقضَوْا على روح الأخوَّة بينهم ... جهلاً وعاشوا عِيشةَ الأغراب

فَرِحَتْ بهم غولُ التعاسة والفنا ... ومطامعُ السَّـــلاَّب والغلاَّب

لُعَبٌ ، تُحرِّكها المطامعُ ، واللُّهى ... وصغائرُ الأحقـــاد والآراب

وأرى نفوسًا ، من دُخان ، جامدٍ ... مَيْتٍ ، كأشباحٍ ، وراء ضباب

مَوْتَى ، نَسُوا شوقَ الحياة وعزمَها ... وتحرَّكوا كتحرُّك الأنصاب

وخَبَا بِهِمْ لَهَبُ الوجود ، فما بَقُوا ... إلاَّ كمحترقٍ من الأخشاب

لا قلبَ يقتحمُ الحياةَ ، ولا حِجًى ... يســـمو سُمُوَّ الطائر الجوَّاب

بل فى التراب المَيْتِ، فى حَزْن الثرى ... تنمو مشاعرُهم مع الأعشاب

وتموت خاملةً ، كزهرٍ بائس ... ينمو ويذبُل فى ظلام الغاب

أبدًا تُحدِّقُ فى التراب . . ، ولا تَرَى ... نورَ السماء . . ، فروحُها كتراب . . !

الشـــاعر الموهوبُ يُهرِق فنَّه ... هدرًا على الأقـدام والأعتاب

ويعيش فى كونٍ ، عقيم ، ميِّتٍ ... قد شـــيَّدته غباوةُ الأحقاب

والعـالِمُ النِّحرير يُنفقُ عُمْرَه ... فى فهم ألفاظٍ ، ودرس كتاب

يَحيا على رِمَمِ القديمِ المُجْتَوَى كالدُّود فى حَمَمِ الرَّماد الخابى
والشَّعْبُ بينهما قطيعٌ ، ضائعٌ دنياه دنيا مأكلٍ وشراب

* * *

الوَيْلُ للحسَّاس فى دنياهم ماذا يُلاقى من أسًى وعذاب !

إلى الطغاة العالم

ألا أيها الظالم المستبدُّ حبيبُ الظلام ، عدوُّ الحياهْ
سخرتَ بأنَّات شعب ضعيف وكفك مخضوبة من دماه
وسرتَ تُشوِّه سِحْرَ الوجود وتبذر شوك الأسى فى رُباهُ

* * *

رُوَيدَكَ ! لا يخدعنّك الربيعُ وصحوُ الفضاء ، وضوء الصباحْ
ففى الأفق الرحب هولُ الظلام وقصفُ الرعود ، وعصف الرياح
حذارِ ! فتحت الرماد اللهيبُ ومن يبذر الشوك يجنِ الجراح

* * *

تأمل ! هنالك . . أنّى حصدتَ رءوسَ الورى ، وزهورَ الأملْ
وروَّيت بالدم قلبَ التراب وأشربتَه الدمعَ ، حتى ثمل
سيجرفكَ السيلُ ، سيلُ الدماء ويأكلُك العاصفُ المشتعِل

شكوى ضائعة

يا ليل ! ما تصنع النفسُ التى سكنت ... هذا الوجودَ ، ومِنْ أعدائها القدر ؟

ترضى وتسكت ؟ هذا غير محتمل ! ... إذًا ، فهل ترفض الدنيا ، وتنتحر ؟

وذا جنونٌ ، لَعَمْرى ، كلُّه جَزَعٌ ... بالله ، ورأىٌ مريضٌ ، كلُّه خَوَر !

فإنما الموت ضربٌ من حبائله ... لا يُفلت الخَلقُ ما عاشوا ، فما النظر ؟

هذا هو اللُّغْزُ ، عَمَّاهُ وعَقَّدَهُ ... على الخليقة ، وحشٌ ، فاتكٌ حذِر

قد كَبَّلَ القدرُ الضارى فرائسَه ... فما استطاعوا له دفعًا ، ولا حَزَروا

وخاطَ أعينَهم ، كى لا تشاهده ... عينٌ ، فتعلم ما يأتى وما يذر

وحاطهم بفنونٍ من حبائله ... فما لهم أبدا من بطشه وزَر

لا الموت يُنقذهم من هول صولته ... ولا الحياةُ . تَساوَى اليأسُ والحجر !

حَارَ المساكينُ ، وارتاعوا ، وأعْجَزَهم ... أن يحذروه ، وهل يجديهم الحذر

وهم يعيشون فى دنيا مشيَّدةٍ ... من الخطوب ، وكونٍ كلُّه خطر ؟

وكيف يحذر أعمى ، مُدْلِجٌ ، تَعِبٌ ، ... هولَ الظلام ، ولا عزمٌ ولا بَصَر ؟

قد أيقنوا أنه لا شىء يُنقذهم ... فاستسلموا لسكون الرعب ، وانتظروا ..

ولو رأوه لسارت كى تحاربه ... من الورى زُمَرٌ ، فى إثرها زمر

وثارت الجنّ ، والأملاك ناقمةً ... والبحرُ ، والبَرُّ ، والأفلاكُ ، والعُصُر

لكنه قوّةٌ تُمْلى إرادتها ... سِرًّا ، فنَعْنو لها قهرًا ، ونأتمر

حقيقة ، مُرَّةٌ ، يا ليل ، مُبْغَضَةٌ ... كالموت ، لكنْ إليها الوِرْدُ والصَّدَرُ

* * *

تَنَهَّدَ الليلُ ، حتى قلت : « قد نُثِرَتْ ... تلك النجومُ ، ومات الجنُّ والبشر »

وعاد للصَّمت . . ، يُصغى فى كآبته ... — كالفيلسوف — إلى الدنيا ، ويفتكر

وقَهْقَهَ القدرُ الجبّارُ ، ساخرةً ... بالكائنات . تَضاحَكْ أيّها القدر !

تمشى إلى العدَم المحتوم ، باكيةً ... طوائفُ الخلق ، والأشكالُ والصور

وأنتَ فوْقَ الأسى والموتِ ، مبتسمٌ ... ترنو إلى الكون ، يُبْنَى ، ثمَّ يندثر

الغاب

بيتٌ ، بَذَتْه لىَ الحياةُ من الشذَى ، والظل ، والأضواء ، والأنغام
بيتٌ ، من السحر الجميل ، مُشَيَّدٌ للحبِّ ، والأحلام ، والإلهام
فى الغاب سِحرٌ ، رائعٌ مُتجدِّدٌ باقٍ على الأيام والأعوام
وشذًى كأجنحة الملائك ، غامضٌ ساهٍ يُرفرف فى سكونٍ سام
وجداولٌ ، تشدو بمسول الغِنا وتسيرُ ، حالمةً ، بغير نظام
ومخارفٌ نَسَجَ الزمانُ بساطَها من يابسِ الأوراق والأكمام
وحَنَا عليها الدَّوْحُ ، فى جَبَروته بالظلِّ ، والأغصان والأنسام
فى الغاب ، فى تلك المخارف ، والرُّبا ، وعلى التِّلاع الخُضرِ ، والآجام
كم من مشاعِرَ ، حلوةٍ ، مجهولةٍ سَكْرَى ، ومِنْ فِكَرٍ ، ومن أوهام
غَنَّتْ ، كأسراب الطيور ، ورفرفت حولى ، وذابت كالدخان ، أمامى
ولكَمْ أَصَخْتُ إلى أناشيد الأسى وتنهُّدِ الآلام والأسقام
وإلى الرياح النائحات كأنها فى الغاب تبكى مَيِّتَ الأيام
وإلَى الشبابِ ، مُغَنِّيًا ، مُتَرَنِّمًا حوْلى بألحان الغرام الظامى
وسمعتُ للطيْر ، المغرِّد فى الفضا والسِّنديان ، الشامخ ، المتسامى
وإلى أناشيد الرعاة ، مُرِفَّةً فى الغاب ، شاديةً كسِرب يَمام
وإلى الصدى ، المِمراح ، يهتف راقصًا بين الفجاج الفيح والآكام

حتى غَدَا قلبي كنَايٍ ، مُتْرَعٍ ثَمِلٍ من الألحـــان والأنغام
فشدوتُ باللحن الغريب مُجَنَّحًا بكآبةِ الأحـــلام والآلام
فى الغاب ، دنيا للخيال ، وللرُّؤى ، والشعرِ ، والتفكيرِ ، والأحلام
لِلّه يومَ مضيتُ أوّلَ مرَّةٍ للغاب ، أرزحُ تحت عبء سقامى
ودخلتُه وحدى ، وحولِى موكبٌ هَزِجٌ ، من الأحلام والأوهام
ومشيْتُ تحت ظِـــلاله مُتَهيِّبًا كالطفل ، فى صَمْتٍ ، وفى استسلام
أرنو إلى الأدْوَاحِ ، فى جبروتها فأخالها عَمَدَ السماء ، أمامى
قد مسَّها سِحْرُ الحياة ، فأوْرَقَتْ وتمَايَلَتْ فى جَنَّةِ الأحـلام
وأُصيخُ للصَّمْتِ المفكر ، هاتفًا فى مِسمعى بغرائب الأنغام
فإذا أنا فى نَشْوَةٍ شـــعريّةٍ فَيَّاضَـــةٍ بالوحى والإلهام
ومشاعرى فى يقظةٍ مسحورةٍ (١)
وَسْنَى ، كيقظة آدَمٍ ، لَمَّا سَرَى فى جسمه رُوحُ الحياة السامى
وشَجَتْه موسيقى الوجودِ ، وعانقتْ أحلامَه ، فى رقّةٍ وسلام
ورأى الفراديسَ ، الأنيقةَ ، تنثنى فى مُتْرَفِ الأزهار والأكمام
ورأى الملائكَ ، كالأئمَّة فى الفضا تنسابُ سـابحةً ، بغير نظام
وأحسَّ رُوحَ الكون تخفق حوله فى الظِّلِّ ، والأضواء ، والأنسام
والكائناتِ ، تحوطـــه بحنانها وبحبِّها ، الرحبِ ، العميقِ ، الطامى
حتى تملَّأَ بالحيـــاة كِيانُه وسعى وراء مواكبِ الأيام

(١) بياض بالأصل والمسودات .

ولَرُبَّ صُبْحٍ غائمٍ ، مُتحجِّبٍ في كِنَّةٍ من زَعْزَعٍ وغَمام
تتنفَّسُ الدنيا ضبـــاباً ، هائماً مُتدفِّعاً في أفقـــه المُترامي
والرِّيحُ تخفق في الفضاء ، وفي الثرى وعلى الجبال الشُّمِّ ، والآكام
باكَرْتُ فيه الغابَ ، مَوْهِنَ القُوَى متخاذِلَ الخُطُوَات والأقدام
وجلستُ تحتَ السنديانة ، واجمًا أرنو إلى الأُفُق الكئيب ، أمامي
فأرى المبانيَ في الضباب ، كأنها فِكَرٌ ، بأرض الشكِّ والإبهام
أو عالَمٌ ، مازال يُولَدُ في فَضاء الكونِ ، بين غياهبٍ وسِدام
وأرى الفجاجَ الداميات ، خلالَه ومشـــاهدَ الوديان والآجام
فكأنها شُعَبُ الجحيم ، رهيبةً ملفوفةً في غُبشـــةٍ وظَلام
صُوَرٌ ، من الفنِّ المُرَوِّعِ ، أعجزت وَحْيَ القريضِ وريشةَ الرسام
ولَكَمْ مســاء ، حالمٍ متوشِّحٍ بالظل ، والضوء الحزين الدامي
قد سرتُ في غابي ، كفكرٍ ، هائمٍ في نشـوةِ الأحـلام والإلهام
شعري ، وأفكاري ، وكُلُّ مشاعري منشورةٌ للنُّـــور والأنسام
والأفقُ يزخر بالأشِعَّةِ والشذى والأرضُ بالأعشـاب والأكمام
والغابُ ساجٍ ، والحياةُ مصيخةٌ والأفقُ ، والشفقُ الجميلُ ، أمامي
وعروسُ أحلامي تُداعبُ عُودَها فيَرِنُّ قلبي بالصَّـدَى وعِظامي
روحُ أنا ، مسحورة ، في عالَمٍ فوق الزمان الزاخر الدَّوَّام

* * *

في الغاب ، في الغاب الحبيب ، وإنَّه حَرَمُ الطبيعةِ والجمـالِ الســامي
طَهَّرْتُ في نار الجمال مشـاعري ولقيتُ في دنيا الخيال سَـلامي

ونسيتُ دنيا الناس ، فهى سخافةٌ سَكْرَى من الأوهام والآثام !
وقبستُ من عَطْفِ الوجود وحُبِّه وجمالِهِ قبسًا ، أضاء ظلامى
فرأيتُ ألوان الحياة نضيرةً كنضارة الزَّهَرِ الجميلِ النامى
ووجدتُ سِحْرَ الكون أسمى عنصرًا وأجلَّ من حزنى ومن آلامى
فأهبْتُ — مسحورَ المشاعرِ ، حالمًا نشوانَ — بالقلب الكئيب الدامى :
« هذا المعبدُ الحىُّ المقدَّسُ ها هنا ! يا كاهنَ الأحزانِ والآلام »
« فاخلعْ مُسوحَ الحزن تحت ظِلاله والبسْ رداءَ الشعر والأحلام »
« وارفعْ صَلاتَكَ للجمال ، عميقةً مشبوبةً بحرارة الإلهام »
« واصدحْ بألحان الحياة ، جميلةً كجمال هذا العالَمِ البسَّام »
« واخفقْ مع العِطْرِ المرفرفِ فى الفضا وارقصْ مع الأضواء والأنسام »
« ومع الينابيعِ الطليقةِ ، والصَّدَى ، . . . . . »[1]
وذَرَوْتُ أفكارى الحزينةَ للدجى ونثرتُها لعواصف الأيام
ومضيتُ أشْدُو للأشعَّةِ ساخرًا من صوت أحزانى ، وبطش سقامى
وهتفتُ : « يا روحَ الجمالِ ! تَدَفَّقِى كالنَّهْرِ فى فِكَرِى ، وفى أحلامى »
« وتغلغلى كالنور ، فى رُوحى التى ذُبلتْ من الأحزان والآلام »
« أنتِ الشعورُ الحىُّ يزخر دافقًا كالنار ، فى روح الوجود الدامى »
« ويصوغ أحلامَ الطبيعةِ ، فاجعلى عُمْرِى نشيداً ، ساحِرَ الأنغام »
« وشذاً يضُوعُ مع الأشعَّة والرُّؤَى فى معبد الحق الجليل السامى »

---

(١) بياض بالأصل والمسودات .

فلسفة الثعبان المقدس

فلسفة الثعبان المقدس هى فلسفة القوة المثقفة فى كل مكان . وكما تحدث الثعبان فى القطعة التالية إلى الشحرور بلغة الفلسفة المتصوفة حينما حاول أن يزين له الهلاك الذى أوقعه فيه ، فسماه « تضحية » وجعله السبيل الوحيد للخلود المقدس . . .

كذلك تتحدث اليوم سياسة الغرب إلى الشعوب الضعيفة بلغة الشعر والأحلام حينما تحاول أن تسوغ طريقتها فى ابتلاعها والعمل لقتل ميزانها القومية فتسميها : « سياسة الادماج » وتتكلم عنها كالسبيل الوحيد الذى لامعدى عنه لهاته الشعوب إذا أرادت نيل حقوقها فى هذا العالم ، وبلوغ الكمال الإنسانى المنشود ، ولكن الفناء حقيقة شنيعة ، مبغضة ، لاينقص من فظاعتها وكرهها كل ما فى التصوف والفلسفة والشعر من خيال وأحلام » .

كانَ الربيعُ الحىُّ روحًا ، حالماً غضَّ الشباب ، معطَّرَ الجلباب
يمشى على الدنيا ، بفكرة شاعرٍ ويطوفها ، فى موكبٍ خلاَّب
والأُفْقُ يملأُه الحنانُ ، كأنّه قلبُ الوجود المنتجِ الوهّاب
والكون من طُهْرِ الحياة كأنما هُوَ معبدٌ ، والغابُ كالمحراب
والشاعرُ الشحرورُ يرقص ، منشدًا للشمس ، فوقَ الوردِ والأعشاب

شعْرَ السعادة والسلام ، ونفسُه ... سَكْرَى بسِحْر العالَمِ الخلاّب

ورآه ثعبانُ الجبال ، فغمَّه ... ما فيه من مَرَح ، وفَيْضِ شباب

وانقضَّ ، مُضْطَغِنًا عليه ، كأنَّه ... سوطُ القضاء ، ولعنةُ الأرباب

بُغِتَ الشقيُّ ، فصاح فى هول القضا ... متلفِّتًا للصائل المُنْتَابِ

وتدَفَّقَ المسكينُ يصرخ ثائرًا : ... « ماذا جنيتُ أنا لحق عقابى ؟ »

« لا شئَ ، إلا أننى متغزلٌ ... بالكائنات ، مغرِّدٌ فى غابى »

« ألقى من الدنيا حنانا طاهرًا ... وأبُثُّها نجوى المحبِّ الصابى »

« أيُعَدُّ هذا فى الوجود جريمةً ؟! ... أين العدالةُ يا رفاقَ شبابى ؟ »

« لا [أين؟] ، فالشرعُ المقدَّسُ هاهنا ... رَأْىُ القوىِّ ، وفكرةُ الغلاَّب ! »

« وسعادةُ الضعفاءِ جُرْمٌ . . ، ماله ... عند القوىِّ سوى أشدِّ عقاب ! »

« ولنشهد الدنيا التى غَنَّيْتُهَا ... حلمَ الشباب ، وروعةَ الإعجاب »

« إن السلامَ حقيقةٌ ، مكذوبةٌ ... والعدلَ فلسفةُ اللهيب الخابى »

« لا عدلَ ، إلا إنْ تعادلت القُوَى ... وتَصادَمَ الإرهابُ بالإرهاب »

فتبَسَّمَ الثعبانُ بسمةَ هازئ ... وأجاب فى سَمْتٍ ، وفَرْطِ كِذَابِ :

« يا أيها الغِرُّ المثرثر ، إنَّنى ... أرثى لثورة جهلكَ الثلاَّب »

« والغِرُّ يعذره الحكيمُ إذا طغى ... جهلُ الصِّبا فى قلبه الوثّاب »

« فاكبحْ عواطفَكَ الجوامحَ ، إنّها ... شردتْ بلُبِّكَ ، واستمعْ لخطابى »

« إنِّى إلهٌ ، طالَمَا عَبَدَ الورى ... ظلِّى ، وخافوا لعنَتى وعقابى »

« وتقدَّمُوا لِى بالضحايا منهمُ ... فَرِحين ، شأنَ العابد الأوَّاب »

« وسـعادةُ النفسِ التقيَّة أنّها يومًا تكونُ ضحيَّة الأرباب »

« فتصير فى رُوحِ الألوهة بضعةً ، قُدُسيَّةً ، خلَصتْ من الأوشاب »

« أفلا يسرُّكَ أنْ تكون ضحيَّتى فتحُلَّ فى لحمى وفى أعصابى »

« وتكونَ عزمًا فى دمى ، وتوهُّجًا فى ناظرَىَّ ، وحِدَّةً فى نابى »

« وتذوبَ فى رُوحِى التى لا تنتهى وتصيرَ بَعضَ ألوهتى وشبابى .. ؟ »

« إنّى أردتُ لك الخلودَ ، مؤلَّهًا فى روحىَ الباقى على الأحقاب .. »

« فَكِّرْ ، لتدركَ ما أريدُ ، وإنّه أسمى من العيش القصير النابى »

فأجابه الشحرورُ ، فى غُصَصِ الرَّدى والموتُ يخنقه : « إليكَ جوابى : »

« لارَأْىَ للحقِّ الضعيفِ ، ولاصدًى ، الرَّأْىُ ، رأْىُ القاهرِ الغلاّب »

« فافعلْ مشيئتكَ التى قد شئتَها وارحمْ جلالَكَ من سماع خطابى .. »

* * *

وكذاك تتخـــذ المظالمُ منطقًا عذْبًا لتخفى سَـــوْءَةَ الآراب

الفهرس

الموضوع	صفحة
ترجمة المؤلف	٧
من وراء الظلام	١٣
تونس الجميلة (مع التعاليق)	١٣
من حديث الشيوخ	١٤
خله للموت	١٤
الحياة .	١٥
نظرة فى الحياة	١٥
غرفة من يم	١٧
أنشودة الرعد	١٨
فى الظلام	١٩
مأتم الحب	٢٠
الكآبة المجهولة	٢٢
أيها الليل	٢٥
شكوى اليتيم	٢٩
الزنبقة الذاوية	٣١
شعرى	٣٣
يا شعر	٣٥
زئير العاصفة	٤٢
إلى الطاغية	٤٣
السآمة	٤٤
الحب	٤٥
أيها الحب	٤٥
الدموع	٤٦
أغنية الأحزان	٤٧
المجد	٥٢
سر مع الدهر	٥٢
الذكرى	٥٣
مناجاة عصفور	٥٥
الطفولة	٥٧
قالت الأيام	٥٨
المساء الحزين	٥٩
بقايا الخريف	٦٢
غنية الشاعر	٦٤
فى فجاج الآلام	٦٥
جدول الحب	٦٩
يارفيقى	٧٣
إلى الموت	٧٦
إلى عازف أعمى	٧٨
صوت تائه	٨١
نشيد الأسى	٨٣
قلت للشعر	٨٦
يا ابن أمى	٨٨
أغانى التائه	٨٩
إلى قلبى التائه	٩١
أكثرت يا قلبى فماذا تروم	٩٣
ياموت	٩٥

الموضوع	صفحة
إلى الله	٩٨
النبي المجهول	١٠٢
صفحة من كتاب الدموع	١٠٦
شجون	١٠٨
إلى عذارى أفروديت	١٠٩
الجمال المنشود	
طريق الهاوية	
الأشواق الثائهة	١١٢
أحلام شاعر	١١٤
قيود الأحلام	١١٥
	١١٦
آه أبكيك للحب	١١٧
أبناء الشيطان	١١٨
سر النهوض	١١٩
صلوات في هيكل الحب	١٢١
أراك	١٢٥
رثاء فجر	١٢٦
فكرة الفنان	١٢٧
قلب الأم	١٢٩
حديث القبر	١٣٤
في ظل وادي الموت	١٤١
الساحرة	١٤٤
قال قلبي للاله	١٤٦
مثاعب العظمة	١٤٦

الموضوع	صفحة
الجنة الضائعة	١٤٧
السعادة	١٥١
من أغاني الرعاة	١٥٢
أيتها الحالمة بين العواصف	١٥٥
الأبد الصغير	١٥٦
صوت من السماء	١٥٨
الصباح الجديد	١٥٩
ذكرى صباح	١٦٢
الرواية الغريبة	١٦٤
الحاني السكرى	١٦٥
إرادة الحياة	١٦٧
تحت الغصون	١٧١
إلى الشعب	١٧٥
الناس	١٧٨
نشيد الجبار	١٧٩
زوبعة في ظلال	١٨١
الاعتراف	١٨٢
حرم الأمومة	١٨٢
قلب الشاعر	١٨٣
الدنيا الميتة	١٨٤
إلى طغاة العالم	١٨٥
شكوى ضائعة	١٨٦
الغاب	١٨٨
فلسفة الثعبان المقدس	١٩٢